عن المعرفة، والمنـهج
والثقافة، والعولمة

أ.د. يحيى الرخاوى

١٩٩٦

الإهـــــــداء

إلى: عمر محمد يحيى الرخاوى

(بما هو، وما يمثله)

حكاية هذا العمل:

حين وجدت نفسى عضوا فى لجنة للثقافة العلمية وهى لجنة حديثة تماما خطر ببالى أن من أهم أغراض إنشاء هذه اللجنة هو تنشيط وتنظيم ودعم الجهود العلمية الثقافية المسئولة لتتمكن من الإسهام فى مواجهة ما آل إليه حال فكر العامة، والشباب خاصة من استسلام وتبعية وجمود وتخلف. وقد شاركنى فى هذا الفرض أغلب الزملاء إن لم يكن جميعهم، لكن كيف؟ ومن نحن؟ وما الفرق بين ما هو علم، وما هو ثقافة عامة، وما هو ثقافة علمية ؟ وما هى وسائلنا؟ ومن هو الجمهور المستهدف من نشاطنا؟ وكيف نصل إليه ؟ ظلت هذه الأسئلة تدور طول الوقت (حتى الآن طبعا)، وكان لزاما أن أقف مع نفسى مرارا، ومع زملائى ما أتيحت الفرصة، لأبحث عن إجابة لهذه الأسئلة، وقبل ذلك وبعده، أحدد هويتنا – كلجنة– وهويتى فيها بما هو أنا،

وهذا الكتيب هو تسجيل لمحاولات الإجابة على هذه الأسئلة من منظور أحد أفراد اللجنة، أو هو تفكير بحروف مكتوبة (قياسا على التعبير: التفكير بصوت مسموع)، وفى نفس الوقت تجميع لما يتعلق بوجهة نظرى شخصيا فى هذا الأمر، وإليكم بعض ذلك:

ظل مفهوم" الثقافة العلمية" – حتى الآن– مفهوما غامضا علينا، خاصة ونحن لجنة غير متجانسة تجمع بين المهندس والأكاديمى القح والطبيب الممارس وعالم النفس والإعلامى والصحفى الناقد، وقد حاولنا من البداية أن نتجنب أن نختزل إلى ما هو علم بحت أو أن نضيع فيما هو ثقافة عامة،، فكان – ومازال– من بيننا من يتناول المسألة وكأنها علم بحت يحتاج إلى ترويج أو تبسيط، والبعض الآخر كان همه انتشار المعلومات الصحيحة وجعلها فى المتناول، وآخرون ركزوا على دور التعليم والإعلام، وفريق منا يعطى للعلوم الأساسية أو البيولوجية أولوية خاصة، وآخر يوسع دائرة العلوم لتشمل كل العلوم دون استثناء، فرحنا نمارس ونتناقش ونحاول ونصحح، ولم نستقر بشكل نهائى على اتفاق عام، لكننا رحنا نتبين أكثر وأكثر هويتنا من واقع الممارسة الفعلية الجارية باستمرار.

وأستطيع أن أوجز محاور ما دار حوله الاختلاف والنقاش، بغية تحديد ما هو ثقافة علمية فى المحاور الخمس التالية:

١- **تسويق العلوم**[1]، بمعنى عرض وتجميل وترويج كل ما هو علم ليصبح فى متناول سائر الناس، على كل المستويات، وخاصة للشباب وأثناء مختلف مراحل التعليم، وأيضا من خلال وسائل الإعلام، والخيال العلمى وما إلى ذلك.

---

1 – كان ومازال استعمال كلمة العلوم–بالنسبة لمعظم أعضاء اللجنة – قاصرا على العلوم الأساسية والعلوم الطبيعية والعلوم البيولوجية دون العلوم الإنسانية وفلسفة العلوم، وهذا ما أعنى به استعمال كلمة "علوم" هنا وأنا أصف المحاور الأربعة الأولى فى هذه المقدمة، أما ما أعنيه فى المحور الخامس فهو أشمل من هذا المنظور المحدود.

٢- **تبسيط العلوم:** وهو أمر مرتبط تماما بالمحور الأول، لأن العلوم فى صورتها المصقولة والتفصيلية ليست فى متناول الثقافة العامة لسائر الناس، وكان مهما طول الوقت أن نفرق بين التبسيط والتسطيح..

٣- **توظيف العلوم:** وأعنى به أن تساهم اللجنة فى التأكيد على الجانب التطبيقى للعلوم فى الحياة العامة، سواء كان ذلك فى مجال التقنيات **(**التكنولوجيا**)** أم فى مجال التخطيط فى التربية والاقتصاد والإسكان..إلخ

٤- **تنقية العلوم:** والمقصود بهذا المحور هو التركيز على فض الاشتباك بين ما هو علم من ناحية، وبين المنظومات الحياتية الأخرى مثل المنظومة الدينية، وإلى درجة أقل الفن والأدب، من ناحية أخرى.

٥- **المحور الخامس:** وهو المحور المتعلق بنشر وتدعيم كل من **المنهج العلمى والتفكير العلمى** وإسهامهما فى تشكيل الوعى العام، وهذا المحور لم أجد له إسما مختصرا مثل ما سبقه مثل "منهجة العلوم" أو "موضعة التفكير العلمى" وطبعا تجنبت طول الوقت استعمال مصطلح "**فلسفة العلم**" رغم أنها الأقرب والأصدق إلى هذا المحور.

ورغم عجزى عن التسمية الدالة، إلا أن هذا المحور كان ومازال يمثل وجهة نظرى التى حاولت وأحاول تقديمها للزملاء طول الوقت، وكلما كنت أتصور أننى نجحت قليلا أو كثيرا أفاجأ فى جلسة تالية أننى أحتاج أن أوضح نفسى أكثر، وأحيانا من البداية

وكلما عجزت عن التوضيح شفاهة يخطر ببالى أن أقدم رؤيتى مكتوبة للزملاء، ففعلت أحيانا.

وحين قررت اللجنة النزول إلى الناس بمحاولة إنشاء ما أسميناه "جماعة أصدقاء الثقافة العلمية" وكذلك السفر إلى المحافظات ومخاطبة تجمعات الشباب والمسئولين عنهم[2] وجدت أن هذه الخطوات هى الأقرب إلى تفكيرى، لأننى رجحت - وأرجح- أن مهمة اللجنة الأساسية هى الإسهام فى تشكيل الوعى العام بما هو منهج للتفكير العلمي/ الموضوعى، لكننى أكتشفت أنه مهما فعلنا بعددنا القليل وقدراتنا المحدودة فإننا لن نصل إلا إلى قلة معدودة، غيرمتجانسة، ضعيفة القدرة على التوصيل والانتشار، فاقترحنا أن نطرق باب الإعلام عامة، ورحب الزميل "سامى خشبة " بذلك، فكتبت سلسلة من المقالات بهذا القصد للنشر فى الصفحة المسئول هو عنها فى الأهرام.

ثم إنى جمعت إلى هذه السلسلة ما قدمت إلى اللجنة فى ندواتها وما نشرته من أوراق، فرجحت أنه قد يكون أكثر فائدة ووضوحا حالة كونه مكتوبا مجتمعا.

---

2 - مثل الندوة التى عقدت فى جامعة المنيا يوم ١٣ /٥ / ١٩٩٦، عن الثقافة العامة والثقافة العلمية وشارك فيها كل من أ.د. شادى الروبى، أ.د. عبد الواحد بوصيلة، وأ. عبد المنعم موسى، وشخصى.

فكان هذا الكتيب الذى قررت أن أطرحه فى متناول وعى زملائى والناس، إسهاما فيما تصورته واجب البلاغ والتوضيح والانتشار.

لكننى قبل أن أطرحه بما قدمت رحت أداعب أصابع صديقى الحاسوب فيما يتعلق بموضوعه، فإذا به يخطرنى أننى تناولت هذا الأمر (المنهج، وتعدد روافد المعرفة) بشكل متكرر وملح عبر العشرين سنة الأخيرة (على الأقل)، وإذا بى أكتشف أنه منذ نشرت لى مجلة العربى سنة١٩٨٠ مقالا عن "البرزخ بين العلم والدين" وأنا لا أكف عن العودة لنفس المنطقة أكاد أكرر نفس الكلام، وقد اكتشفت أننى أوجه الحديث عن المنهج لعامة الناس أكثر مما أفعل للزملاء المتخصصين، وكأنى أستنقذ بالناس –أصحاب المصلحة– مما أعانيه داخل تخصصى وبين المنهجيين أصحاب الياقات المنشاة،

فألهمنى كل ذلك أن أضيف جزءا ثالثا إلى هذا الكتيب (حتى صار كتابا) وهو ما سبق أن نشر لى فى الصحف والمجلات العامة فى **مسألة المنهج وتعدد روافد المعرفة** وما يتعلق بهذا وذاك من خلط بين الدين والعلم، وبين الخرافة والغيب، مما انتهى بنا إلى التخلى عن ما هو تفكير نقدى واستبدال الرصاص والقنابل بالحوار والاجتهاد.

فكان هذا العمل هكذا بأجزائه الثلاثة

ثم أعدت ترتيب الأجزاء فأخرت الأكثر اكتمالا وتعقيدا وهو الجزء الخاص باستعمالات لفظ "العلم" و"باللغة العربية وتشكيل الوعي"، مفضلا أن أستدرج القاريء واحدة واحدة، متعمدا عدم حذف المكرر، وسوف يجد القاريء فى الجزء الثالث تفصيلا لمقال اللغة بالذات الذى ورد فى الجزء الأول، تاركا التكرار يلح ويعيد، وهذا ما حاولت تبريره فى تنبيه مستقل بعنوان "ملاحظة ورجاء".

بقيت كلمة أخيرة، وهى أننى طرحت جانبا ما لوح لى به صديقى الحاسوب من سابق اجتهادتى الاكاديمية والتفصيلية فى مسألة "المنهج" التى هى شغلى الشاغل طول الوقت، وكان لهذا التجنب الفضل فى أن يخرج هذا الكتاب فورا، هكذا

يحيى الرخاوى

الإسكندرية فى ٢٩ / ٦ / ١٩٩٦

الـــرجـــاء

أرجو من القارئ ألا يسارع فى إستقبال وفهم الألفاظ المألوفة له مثل: **العلم، الحضارة، المعرفة، الغيب، الدين، الإسلام، التنوير**..إلخ كما اعتاد أن يستقبلها من قبل، ذلك لأن كثيرا من استعمالاتها **فى هذا السياق الخاص** قد تغيّر بشكل أو بآخر، مما يحتاج إلى الصبر حتى الانتهاء من قراءة العمل مجتمعا.

وقد فكرت – تجنبا للخلط – أن أقدم فى البداية تعريفات **للغة الخاصة** المستعملة فى هذا الكتاب، إلا أننى وجدت أن العمل برمته ليس له وظيفة إلا أن يصل بالقارئ فى النهاية إلى اكتشاف هذه اللغة بنفسه، والتى يستحيل أن تستوعب إذا شرحت بمرادفات أو جمل قصيرة تدعى قدرتها على أن تكون جامعة مانعة.

الملاحظة

لاحظت وأنا أقرأ هذا العمل مجتمعا – أثناء الإعداد للطبع–أن نفس المعنى يتكرر كثيرا، وبنفس الألفاظ أحيانا، وقد هممت بحذف هذا التكرار، إلا أننى تراجعت فى آخر لحظة لأعتذر للقارئ الذى لابد أن يدرك أن سبب التكرار:

هو أننى نشرت هذا العمل مجزءا فى أماكن مختلفة لقراء مختلفين فى أوقات مختلفة.

ثم إننى تصورت –الآن– أن هذا التكرار قد يفيد فى إعادة توضيح بعض المفاهيم المستعملة جديدا، كما أسلفنا.

الجزء الأول

كتابات مباشرة

يشتمل هذا الجزء على محاولة المؤلف تقديم مفهوم عن الثقافة العلمية للقاريء العادى، وقد بدأ ذلك بناء على توصية من أعضاء اللجنة أن يسهم كل عضو من موقعه فى مخاطبة الشخص العادى من خلال وسائل الإعلام الواسعة الإنتشار، وجميعها نشر (أو هو تحت النشر) فى الأهرام، وبالذات فى عدد الجمعة صفحة الثقافة، وتشمل هذه المجموعة:

١- الأبعاد النفسية للثقافة العلمية

٢- اللغة العربية والوعى القومى المعاصر

٣ - العمارة والشعر، وعلوم المواجهة

٤ - الحضارة والمدنية، والثقافة العلمية

٥- حدس الإنسان العادى واحتكار المعرفة

٦- الثقافة العلمية: من دوران الأرض إلى جنون البقر

٧- الثقافة العلمية، وإبداع الشخص العادى

٨- حين يصبح العلم خلقا وضميرا حيا

الثقافة العلمية

والعلوم النفسية

مع إعادة تنظيم المجلس الأعلى للثقافة إستـــحـــدثت لجنة اسمها "لجنة الثقافة العلمية" ضمن اللجان المتخصصة للمجلس،وقد شرفت بعضويتها مع نخبة من أصحاب العقول الواعية والحس النقى، وقد استغرق الأمر منى شهورا حتى أجيب عن تساؤل يلح على حول: ما هو التعريف المحدد لما هو "ثقافة علمية"؟ ثم ما هو العامل المشترك الذى يجمعنا بعضنا إلى بعض.

واجتهدنا، كل فى تخصصه، وغير تخصصه، ولاحت إضاءات مناسبة، حتى كاد يتضح لى الأمر، لكنه لم يتضح تماما.

لذلك سوف أغامر بطرح تصورى عن هذا المفهوم الجديد "الثقافة العلمية" وعلاقته بالعلوم - والمعارف- النفسية:

ولكن ثمة مقدمة تمهيدية أشعر أنها لازمة ابتداء، فقد خطر ببالى أنه إذا كان التسخير العملى لمعطيات العلم فى تسهيل وتنظيم السلوك اليومى المادى الظاهر هو ما يسمى التكنولوجيا (اللاحقة) فإن تسخير معطيات العلم فى تشكيل وعى الناس وتنظيم مستويات الوجود (بما فى ذلك مستويات الدماغ)

يمكن أن ينتمى إلى هذا المفهوم الجديد المسمى "الثقافة العلمية "، ولا أعنى بتنظيم مستويات الوجود أى محتوى إيديولوجى معين، وإنما أعنى التنسيق القادر على إتاحة الفرصة لكى تـمارس الحياة اليومية بأكبرقدر من الموضوعية والإبداع.

ولما كنا – أعضاء اللجنة– نفر غير متجانس إلا فى الهدف والالتزام، فقد كان لزاما على كل منا أن يقدم بعض التفاصيل التى تنتمى إلى تخصصه، رغم أن العامل المشترك بيننا كان ومازال أهم من مفردات التخصص الدقيق، وحين واجهت نفسى بالسؤال الخاص بى، وهو: "ما هى معطيات وإسهامات العلوم النفسية فى تنظيم الوعى البشرى لتخليق ما هو ثقافة معاصرة مناسبة لحركية الإبداع وتشكيل الحاضر فالمستقبل؟ وجدتنى أجيب على ما هى أوجه القصور فيما يسمى العلوم النفسية والتى يمكن أن تعيق ما هو ثقافة علمية، ذلك أننى اكتشفت – ليس لأول مرة– أن معطيات ما يسمى بالعلوم النفسية لا تعدو أن تكون إسهاما شديد التواضع لمعرفة النفس، وبالتالى فإن المغالاة فى قيمتها قد يكون معوقا أكثر منه عاملا مساعدا فى تشكيل الوعى بما سبق أن حددناه سالفا، وهكذا وجدت نفسى أحدد دورى فى هذا المجال بالتأكيد على ما لا ينبغى، أكثر منه بالتأكيد على ما ينبغى، وإليكم بعض ذلك:

أولا: مازالت العلوم النفسية، بما فى ذلك الطب النفسى، من العلوم غير الناضجة غير المحكمة (بالمنهج السائد حتى الآن)، ومن ثم لا ينبغى أن تؤخذ معلوماتها بإعتبارها مرجعا وصيا على وعى الناس أو مفسرا لسلوكهم، إلا فى حدود متواضعة تماما

ومع اختلاف الثقافات، بما فى ذلك تنوع الوعى الدينى والمعتقد الدينى والظروف البيئية والمعرفية المختلفة، تصبح الحاجة إلى توسيع مصادر المعارف النفسية أشد إلحاحا وإلزاما.

ثانيا: وعلى ذلك فإن أوجب الواجب ونحن نساهم فى تشكيل الوعى الموضوعى أن نحذر من "تـفـسـنـة" الحياة المعاصرة، وأعنى بتعبير نفسنة (Psychiatrization أو Psycholization) = المبالغة فى استعمال اللغة والرطانة والمصطلحات النفسية فى تفسير مظاهر السلوك البشرى، وخاصة فى مجالات السياسة والإبداع، لأن هذه الحاجة التفسيرية النفسية المباشرة التى يطلبها الناس بإلحاح واستسهال، فيسايرهم الإعلام بسطحية وحسن نية، ثم يستجيب لها الأطباء النفسيون وبعض علماء النفس بالفتاوى والإملاء، إما أنها تتناول جانبا محدودا من السلوك، أو أنها تتبع نظرية بذاتها فى علم النفس أو الطب النفسى، ثم بعد ذلك هى "وجهة نظر" لصاحبها أكثر منها معلومة محكمة، ناهيك عن التسطيح الغالب الذى يجعل ما هو "معرفة نفسية" أقرب إلى النصح والإرشاد والتفسير الخطى أحادى المنطق.

فكيف تضيف المعارف النفسية عامة – بما فى ذلك علم النفس والطب النفسى – إلى ما هو ثقافة علمية؟

أولا: ينبغى فتح الباب على مصراعيه للتقدم نحو محاولات "معرفة النفس" من كل روافد المعرفة.

ثانيا: ينبغى أن تحدد الأهداف التى نريدها من هذه المعرفة لتنظيم الوعى وتأكيد الموضوعية وإطلاق الإبداع

ثالثا: ينبغى أن تحدد الوسائل القادرة عل تحقيق هذه الأهداف بالعمل على التدريب على أفضل سبل التلقى، والتأكيد على مرونة اللغة، وإطلاق دورية الإبداع أكثر من التركيز على تقديم معلومات مهزوزة صادرة من منهج مشكوك فيه تحت اسم علم النفس أو الطب النفسى وخاصة إذا قدمت بطريقة "وثقانية" وكأنها الحق.

إن الثقافة العلمية من وجهة النظر النفسية مختصة بالتركيز على الإسهام فى تنمية الأداة البشرية التى تحقق الموضوعية الحياتية بتنمية "**التفكير العلمى**" كمنهج فى الحياة اليومية، ذلك أن الأهم فى مرحلتنا هذه – بل وفى كل المراحل– هو ألا نتصور أن "البحث العلمي" فى معامل الأبحاث وحتى فى الجامعات: هو فقط الذى ينبغى أن نتبع فيه المنهج العلمى، **فالتفكير العلمى** يأتى – قبل وبعد منهج الممارسة فى المعمل أو فى التجريب – هو سلوك يومى يجرى، أو ينبغى أن يجرى، فى كل موقع وعلى كل مستوى، أما البحث العلمى فهو ممارسة محدودة تماما، وقد تكون هامشية فى كثير من الأحيان فى بلدنا خاصة، بالنسبة لدورها فى تكوين وعى الناس.

والتفكير العلمى لا يرتبط بمنهج تجريبى ظاهر بذاته، ولا هو قاصر على المعطيات المادية المحدودة، ولا هو يعنى الإنغلاق خلف نتائج المعامل وأرقام الإحصاء، وإنما هو يمتد إلى كل ما يحقق **موضوعية المعرفة**.

وموضوعية المعرفة فى مجتمعنا بالذات تتحقق من روافد معرفية متوازية ومتكاملة، وليس باختزالات علمية تعسفية لمجرد أنها خرجت من معمل أو عوملت بالإحصاء، كما أن موضوعية المعرفة لا تستمد من نص جامد ولا من حدث تاريخى "مات" فعلاً.

وعلى ذلك تكون للمعلومات المحكمة المستقاة من المنهج التجريبى نفس الأهمية التى للمعلومات الواردة من كشف الوعى بالتحريك الأدبى والفنى، هذا بالإضافة إلى الرافد الأعمق للمعرفة الواردة من العلاقة السليمة بين الإنسان وربه تدينا وإيمانا.

ويصبح الإنسان عارفا موضوعيا بقدر ما يستقى أبجدية وجوده من هذه الروافد الثلاثة (الإبداع العلمى، والإبداع التشكيلى – باللفظ واللون وغيرهما– والإبداع الإيمانى) بتكامل متناغم وليس باختزال مــتــرجــم.

فالذى يحاول أن يترجم اللغة الدينية -مثلا- إلى لغة علمية لا يفعل إلا أن يحشر الأكبر فى الأصغر ولعله يحشر الأصول فى الفروع أحيانا، أو هو يختزل المطلق إلى المحدود، ثم هو يغلق رافدا مستقلا للمعرفة الموضوعية التى تصب حتما فى تكوين الوعى الخلاق.

كذلك فإن الذى يحاول أن يفرض وصاية "نص دينى" على معرفة علمية إنما ينكر - ضمنا- أن المعارف التى أنزلها الله على عباده وهم يمارسون منهجا رصينا، هى من فيض تكريم إنسانية الإنسان بتوسيع دائرة معارفه وتعميق أبعاد وعيه. وأن اتباع المعارف العلمية الموضوعية هو نوع من العبادة لأنه حكم بما أنزل الله من معارف ووعى فائق ينير بصيرة المبدعين- **ومن لا يحكم بما أنزل الله من معارف موضوعية** عبر عقول مبدعة فقد خالف فطرته.

ثم يأتى دور الإسهام النفسى فى الثقافة العلمية فى إعادة النظر فى "طبيعة وتأثير اللغة"، وبالتالى مساندة صقلها بإعتبارها التركيب الرائع المنظـــم للوعى، وفى نفس الوقت هى الأساس المتين لإمكانية التواصل، لكن هذا وذاك لا يكفى لتقوم اللغة بدورها الكيانى والمعرفى، وهنا يبدو أن الإسهام النفسى يمكن أن يقوم بدور نشط فى مجال ترشيد تحريك اللغة وتوجيه نموها، أى التدريب على مرونة الوعى - حيث اللغة أساس جذرى فى تشكيله، ولكى تصبح اللغة كيانا حيا متحركا-بأصول مرعية والتزام إبداعى - ينبغى أن تسهم العلوم النفسية اللغوية فى إعادة تشكيل وعى الناس بما هو معاصر موضوعى خلاق؟

ثم يأتى دور العلوم (والمعارف) النفسية فى تشكيل وعى الناس بالتركيز على المفاهيم الحقيقية للإبداع، لا بوصفه نتاجا خاصا، لمواهب فردية محدودة، وإنما بوصفه طبيعة بشرية لا يكون الإنسان - كل إنسان - بشرا إلا من خلال تنميتها، وهنا يحتاج الأمر إلى إعادة تعريف الإبداع، بحيث يشمل الفعل اليومى، ونوع الوجود، وتفجر الوعى، وإستيعاب الحلم، والإضافة إلى الناتج الإبداعى فى صورته المألوفة تشكيلا رمزيا وكشفا علميا[1].

كذلك تسهم المعارف النفسية - من كل مصدر- فى توثيق العلاقة بالواقع الحى، ليس باعتباره الملموس بالحواس، فحسب وإنما باعتباره الوجود الموضوعى للداخل والخارج وامتدادهما.

وأخيرا فإن التعامل مع "الزمن" ككائن حاضر، ومجال إرادى معا، هو من أهم ما يمكن أن يدرج ضمن اهتمامات الجانب النفسى فى تشكيل وعى الإنسان المعاصر، ومن ثم يقع فى مجال الإسهامات التى نشير إليها حالا.

من كل ما سبق نستطيع أن نخلص إلى القول:

---

1 - أنظر: الثقافة العلمية وإبداع الشخص العادى.

أولا: إن إسهام المعارف النفسية فى تنمية الثقافة الموضوعية وتشكيل الوجود الحى لشعب ما ينبغى ألا يكون قاصرا على ما يسمى علم النفس أو الطب النفسى، بل إن أغلب المعطيات المحدودة المجردة لهذين الفرعين ينبغى أن تؤخذ بحذر شديد، لعدم نضجها من ناحية ولمحدودية منهجها من ناحية أخرى.

ثانيا: إن إسهام المعارف النفسية ينبغى أن يركز على "كيف الحياة" وليس على "كم المحتوى للحياة" وذلك حتى يتحقق وجود بشرى خليق بما حققه الإنسان من معارف وما امتلك من أدوات. فالتركيز – مثلا – على "**كيف نقرأ**" ينبغى أن يلقى نفس الإهتمام الذى نوليه للتركيز على "**ماذا نقرأ**"، وربما أكثر.

ثالثا: إن ذلك يمتد إلى ضرورة الاستفادة من المعطيات العلمية والتقنية المعاصرة والمناسبة فيما يختص بتشكيل وعى المواطن المعاصر لتحقيق درجة من التناسب مع مسيرة العصر وإنجازاته وذلك بالعمل – بكل الوسائل – على تنمية كل من:

(أ) الإدراك النقدى (تنمية وتدريب العقل النقدي).

(ب) الحرص على إحكام ورصانة ومرونة وحركية اللغة.

(جـ) تنمية الإبداع فى الفعل اليومى ونوع الوجود (جنبا إلى جنب مع إنتاج الإبداع التشكيلى الرمزي).

(ء) إعادة ترتيب العلاقة بالواقع الداخلى والخارجى وهما فى حالة إمتداد غير متناه.

(هـ) التعامل مع الزمن كمتغير فاعل، فى متناولنا أيضا، أى أن لنا فى تشكيله دور إرادى قادر.

اللغة (العربية)
والوعى القومى المعاصر[2]

تفضل المجلس الأعلى للثقافة بتبنى مفهوما حديثا يقال له "الثقافة العلمية" حتى أنشأ له لجنة مختصة، لا هى تتعاطى العلم البحت، ولا هى تقع على الجانب الآخر فتشارك فى الهم الثقافى العام دون تحديد، بل إنها لجنة وجدت نفسها بعد اجتهاد عامين مكلفة بالإسهام فى تشكيل وعى أهل بلدنا بحسابات الأحدث والأكثر موضوعية مستلهمة فى ذلك الإنجازات العلمية منهجا ومعلومات فى آن، ولما كان العلم عالمى بطبعه، فإن المنتظر أن تكون الثقافة العلمية هى الثقافة العالمية، لكن الثقافة هى الحالة الكلية المشتبكية التى يتشكل بها ومنها الوعى العام لمجموعة من البشر فى فترة من الزمن فى بقعة من

---

2 - الأهرام ٢٨ / ٤ / ١٩٩٦

الأرض، وبالتالى فبقدر ما هى متنوعة ومتميزة ومميزة لكل مجموعة على حدة، نجدها متمحورة حول هدف مشترك متصاعد يبدأ بمجموعة محددة ثم يتمادى ليشمل البشر.

والمثقف هو الشخص الأقدر على استيعاب هذا الوعى العام فى وجوده الخاص، حالة كونه يعيش على أرض بذاتها، فى وقت بذاته فماذا يمكن أن يفعله مثقف عربى فى مواجهة هذا الذى يجرى حالا على مستوى العالم وعلى المستوى القومى، وماذا يمكن أن يساهم به مثقف عربى يتعاطى العلم كوسيلة لتشكيل الحياة الخاصة بنفسه وأهله بما ينبغى كما ينبغي؟ كيف هذا وذاك وكل صباح وكل إذاعة مرئية أو مسموعة وكل مساء يحيط بنا نداء يقول إن ثمة نظام عالمى جديد علينا أن نتبعه، وأن ثمة فرمانات تصدرتباعا تحدد حقوق الإنسان وحقوق الحيوان وحقوق المعوقين وحقوق الشواذ (دون حقوقنا نحن بالذات، إذ يبدو أننا لا نتمنى إلى أى من هذه الفئات)، وعلينا أن نطيعها حسب تفسيرات وتعريفات سلطان أوحد يركب قمرا صناعيا دوارا يفتش من خلاله فى ضمائر الأفراد والأمم ويمنح صكوك الالتزام بالتبعية، وأوسمة ومنح الشطارة للأكثر طاعة وأتقن تلقياً، أو هو يصدر أوامر النفى والتجويع لمن لا يسمع الكلام أو من يتبجح ليتصور أن ثمة حلا آخر حتى لو كان حلا مساعدا وليس بالضرورة بديلا ؟

هل نستسلم ونحسن أخلاقنا لننجح فى الامتحان الذى يقيسنا بهذه المقاييس فنأخذ عشرة على عشرة ونجمة وبرافوا، ومنحة، ومعونة، ودعم لبحث مشبوه، وجائزة؟ أم ننظر ونرى إلى أين؟ وإذن ماذا؟ (خشية أن يكون ناظر المدرسة نفسه ليس عنده فكرة،) أم ننفصل وننعزل تحت وهم القومية الخاصة بمعناها العنترى التاريخى القديم؟ أم نتراجع ونحلم بتاريخ ذهب متصورين أنه قادر على أن ينقذنا من هذه الألاعيب الخبيثة والغامضة ؟

وباختصار أهذا مقال يضع سؤال أكثر منه يحاول إجابة، والسؤال يقول: **كيف نحافظ على هويتنا- قوميتنا دون أن ننفصل عن العصر؟**

وأنبه ابتداء إلى أننى لا أنوي، ولا أريد، أن أصل فى النهاية إلى هذه التسوية المائعة التى تنتهى بهامثل هذه المحاولات والتى تقول أن "خير الأمور الوسط" و أنه "شوية من ذا، وشوية من ذا ".

إن علينا أن نعيد النظر فى تعريف القومية العربية بلغة العصر وحسابات المستقبل، وحتى نفعل ذلك فلا بد أن نبدأ بالتفرقة بين ما كان يسمى بالقومية العربية لأسباب سياسية أو عنصرية أو حتى تاريخية، أو عنترية أو فى أحدث الأحوال ناصرية، وبين ما يمكن أن يسمى الآن بالقومية العربية المعاصرة: فلنواجه التحدى قائلين إن التاريخ، والفخر والهجاء لا يمكن لهم أن يجمعوا العرب الآن، وإن كلا من العامل الاقتصادى (تبادل المصالح) واللغة العربية (بمعناها الأشمل) هما العاملان الأقدر على تسهيل التواصل، ومن ثم توحيد التعاون وترشيد التوجه، ولست فى موقع يسمح بالحديث عن

المصالح الاقتصادية المشتركة، فقط أتذكر متألما أن أكثر بلدين فى المنطقة (بثرائهما الطبيعى وقدرات أبنائهما، وليس بمخزونهما المعرض للنفاد) وهما العراق والسودان، يعيشان فى حالة شلل من الداخل والخارج بما لا بد أن نفهم منه ماذا فعلنا بأنفسنا، ثم ماذا يراد بنا.

إننى سوف أكتفى فى هذه المقدمة بالحديث عن أهم مقومات ثقافتنا الخاصة وهى: اللغة (العربية) فإذا كنا قد تنازلنا، أو تنوزلنا عن فاعلية كل مقومات القومية العربية (القديمة) من جغرافيا وسياسة وتاريخ وفخر وهجاء، فإن اللغة العربية مازالت – حتى لو لم نرض أو نقصد – هى لغتنا ومازلنا عاجزين– رغم مزاعم الكسل وغلبة التبرير وجهود تلوث الوعى أو تلويثه أن نتنازل عنها.

إن توحيد العالم من خلال شفافية المعلومات، واختفاء الاستقطاب السياسى، وكذلك اندماج النظم الاقتصادية: يواجه بحركة تبدو مضادة إذ تحيى القوميات فى كل مكان **فهل يمكن أن نستفيد من هذا التناقض المتحدى؟**

ففى الوقت الذى يتجه فيه العالم – إلى ما يشبه الواحـــدية نجد أننا نعيش عصر إحياء القوميات على كل المستويات حتى لو بلغ عدد من ينتمون إلى قومية صغيرة عشرات أو مئات الآلاف من البشر لا أكثر، بل إن قوميات – ليست هى قوميات أصلا– تتجمع لتصنع قوميات زائفة أو جديدة تحت أساطير دينية أو مغالطات تاريخية (كما حدث ويحدث فى إسرائيل).

فما هو السبيل إلى مواجهة هذا التناقض الظاهر؟

إذا دققنا النظر بدت لنا المسألة ليست تناقضا بقدر ما هى اختلاف للتكامل، فطيـــب أن يختفى مفهوم "الحقيقة الواحدة"، لينفتح الباب على مصراعيه لمفهوم "الحق المتعدد" القادرعلى التفاهم والتكامل مع بعضه البعض.

إن الحقيقة العلوية الواحدة أصبحت مضحكة (إضحك معى على: ألمانيا فوق الجميع أو مصر فوق الجميع)، والمطروح الآن هو تنشيط الاختلاف سعيا إلى توحيد التوجه الضام"، وبألفاظ أخرى إن الأمر يحتاج إلى تعميق ما هو خاص، لإمكان التوجه معا إلى الهدف المشترك، خلاصة القول فى هذه البداية أوجزء كما يلى: إننا مطالبون بتعميق قوميتنا، وإضفاء صفات جديدة عليها، وتضمينها مضامين حديثة ومتطورة، كل ذلك بلغة عصرية مفتوحة تقبل الحوار وتبادل المعارف بأسرع إيقاع فى أوسع مساحة وفى حالتنا الخاصة أقرر أن اللغة العربية مازالت هى الكيان المحورى الذى يضمنا إلى بعضنا البعض أقرب فأقرب، وأوثق فأوثق نعم: إن اللغة العربية – بطول العالم العربى وعرضه – قد قبلت تحدى الشرذمة والتغريب، ثم إنها قد نجحت فى تجاوز محاولات تشويهها أو تجنيبها، وقد تم ذلك بفضل قوتها ورسوخها أكثر منه بفضل تخطيط أهلها للحفاظ عليها وتأمينها، وجدير بنا أن نواصل الجهد حتى

نرد للغتنا جميلها فنحافظ عليها – إراديا وتخطيطا وفعلا وممارسة حالا ومستقبلا، كما حافظت هى علينا أمة مازالت تجمعها معالم خاصة، ويظلها أمل عام.

ولن يكون هذا الجهد المبذول للحفاظ على اللغة العربية وإحيائها وتجديدها هو لغرض تحديد الهوية أو تأكيد الذات أوإحياء القومية فحسب، بل إن ذلك هو ألزم ما يكون لإطلاق قدرات الإبداع فالإسهام فى العطاء على مستوى العالم بما يمكن أن نضيفه من موقعنا بلغتنا محاورين لا مقلدين، ومشاركين لا أتباع.

ولتوضيح هذا الأمر نبدأ بسؤال أسبق يقول: إذا كان الوجود لغة، واللغة إبداعا، ولا هوية ولا بقاء بغير ذلك، فأى لسان أقرب وأصلح لنا حتى يمكن استثمار **ما هو لغة لازمة، لإطلاق إبداع ممكن؟**

-الاختيارات أمامنا ثلاثة لا أكثر

إما اللغة العربية (الفصحى = تحت التحديث حتما) – وإما اللغات (اللهجات) العامية – وإما لغة أجنبية (يقولون إنه من المستحسن أن تكون لغة بلد سابق متقدم)؟ – أما اللغة (اللغات) العامية فهى لغة لا شك فى ذلك، وهى لغة قادرة ومبدعة، وفاعلة ولا يوجدماينقص من أحقيتها فى ذلك، لهذا لا ينبغى إغفالها أو تهميشها، و إلا كنا نفتعل مسيرة ضد طبيعة التطور، وضد حركية اللغة، وضد فرص الإبداع، ولكن هذه اللغات (اللهجات) العامية لا ينبغى، ولا تقدر، أن تحل محل العربية الفصحى، وإنما هى تستطيع وينبغى أن تجاورها وتتحاور معها وتثريها وتكملها، فلا محل –إذن– للمفاضلة بين العامية والعربية فى هذا الصدد، ولكن أيضا لا مبرر للتنكر للغات واللهجات العامية، إذ أن التكامل ممكن، باعتبار أن العامية قادرة على إثراء العربية بما تحتاجه لتأكيد المرونة والحركية، وفى نفس الوقت لتظل محتفظة بكيانها العام وميزاتها الموحدة.

أما إحلال لغة أجنبية كبديل للعربية (ولنفترض أنها الإنجليزية –مثلا–، لادعاء عالميتها، وعلميتها) فهذا هو الخطر الأكبر، والأسباب كثيرة، وهى تتردد عادة فى سياق الجدل المخجل الدائر حول ما يسمى تعريب العلوم الطبيعية، وأولها الطب، والمصيبة الكبرى أن هذا الاتجاه الذى ظل يشوه الدراسة فى كلية الطب حتى الآن، والذى يجد من يدافع عنه دون شعور بالنقص أو –عذرا– دون شعور بالخجل، هذا الاتجاه قد امتد إلى كليات أخرى مثل كلية التجارة، حتى أصبح الطالب فى هذه الأقسام ينبه المستمع له حين يتعرف عليه قائلا: "..أنا فى تجارة إنجليزى"، وكأنه ينفى ابتداء أن يظن السائل أنه فى "تجارة" أى كلام (أى عربى!!!)، ولا داعى هنا أن أعدد الفروق الجوهرية (الثقافية والحضارية) بين من يتكلمون الإنجليزية بوجه خاص (كممثل للسان الأعجمى الأنجلوسكسونى) وبيننا نحن الذين نتكلم اللغة العربية، كذلك لا مجال للتذكرة بأن هذه الفروق هى ليست فروق لسان بقدر ما

هى فروق كيان لغوى وتركيب حيوى هما نتاج الجغرافيا والتاريخ والدين والأهداف والأعراف الخاصة بنا، والمختلفة عن أقوام يتكلمون لغات أخرى.

إنها ليست مسألة تعصب قومى لإحياء تاريخ مجد قديم، بل هى مسألة إتاحة الفرصة أمامنا بكل تاريخنا وقدراتنا لنساهم إيجابيا فى الحوار الدائر بين الحضارات؟

والآن دعونا نتساءل: هل للعربية سمات خاصة يمكن من خلالها أن تضيف إلى الفكر الإنساني؟ ولكن قبل ذلك: هل يتغير منهج التفكير والحياة بتغير اللغة أم أن المسألة هى مجرد أشكال وألفاظ مختلفة؟

وهل يستعيد العقل العربى استقلاله وحريته إذا درس وتكلم وبحث بالعربية؟ أم أنه سينعزل ويتمادى فى غرور تاريخى قديم ؟

وهل – فى المقابل– يستعيد الفكر العربى لغته بثرائها وتاريخها وقدراتها الإبداعية إذا استعاد حرية تفكيره وحركية وجوده وحقيقة استقلاله؟

ولا توجد عندى إجابات بل فروض تقول: إن اللغة العربية تعلن عن، وتمثل، حضارة راسخة، سجـــلت بلسان عربى، وظلت نفس اللغة قائمة كما هى، بأقل قدر من التشويه، حتى لتعتبر من أرسخ لغات العالم الحالية، ويرجع الفضل فى هذا أساسا إلى حفظها بالقرآن الكريم وعلومه، فهى تاريخ بشرى قائم بيننا/فينا، ثم إنها التاريخ المخزون فى الحاضر القائم.

وعلى ذلك ينبغى ألا نطرح كل هذا خلفنا إما بإهمال وكسل وإما نتيجة لشعور بالنقص والغربة.

إن سعينا اللاهث لاكتساب تفوق سطحى بلغة أخرى لا ينتج عنه – مع إهمال العربية– إلا اكتساب رطانة خدم علية القوم، أو جمال رسم الخطاطين الذين يستأجرون لكتابة لافتات الترحيب بالملوك والرؤساء العجم على أحسن الفروض وقد يكون مناسبا أن أورد بعض معالم هذه الفروق التى تميزنا عنهم، وهى ليست فروقا يقينية بقدر ما هى فروض محتملة استلهمتها من روح اللغة العربية أساسا، فقد أوحت لى هذه اللغة العظيمة أننا (أو أننا يمكن أن نكون):

ا– أكثر اتصالا بالطبيعة وحوارا معها فى تشكيل مرن متغير (لاحظ الرسم العربى المرن والمتعدد)

ب – أكثر حركية وامتدادا فى الزمن (لاحظ تنويعات الصرف اللغوي)

جـــ– أكثرتحديدا للكيان الفردى (لاحظ الضمائر المميزة لتنوع الخطاب حسب نوع المخاطب)

ثم أختم هذه المقدمة بقولي:

إن حديثنا عن اللغة العربية ليس حديثا عن الماضى، بل عن المستقبل، المستقبل هو مستقبل كل الناس وليس مستقبل الدول المتقدمة فحسب وعليه فلا بد أن يتكلم المستقبل بكل لغات هذه الأرض، مع إتقان اللغات العالمية المتوحدة الجديدة: مثل لغات الحاسوب، والموسيقى والتشكيل إن التحدى الملقى علينا

هو أن نواكب المستقبل بلغتنا المرنة القادرة فى حالة تحديث مستمر، وهكذا، لا تعود لغتنا العريقة لغة متاحف محنطة وعبادة راتبة وشعر قديم ؟بل تصبح معمارا حيا مرنا متجددا قابلا للإبداع بالإضافة والحذف وإعادة التشكيل.

نحن لا نريد "العودة إلى العربية" بل نؤكد على ضروة "الانطلاق من العربية وبها.." (بنفس القدر الذى لا ينبغى أن ننادى فيه بالعودة إلى الإسلام – فما تركناه وإنما هم الذين يحاولون طردنا منه– وإنما نؤكد على ضرورة الانطلاق من الإسلام وبه) أما تفاصيل علاقة هذه البداية بتكوين الوعى، وتعميق الثقافة الخاصة، وتأكيد الهوية، وإطلاق الإبداع فلهذا حديث آخر.

العمارة والشعر

وعلوم المواجهة[3]

الأصل فى حكاية الثقافة العلمية هو العمل على تأصيل منهج التفكير العلمى عند عامة الناس، ثم تشكيل وعى الناس بعطاء ومنظومات العلوم جميعا، وهنا يجدر بنا أن نبحث عن ترتيب هيراركى لتوظيف العلوم لهذه الأغراض، فثمة رأى يتصور أن العلوم الأساسية هى الأصل، وأن العلوم الإنسانية والتكنولوجيا (الأحدث) هى فروع منها (مثل ما كتبه الزميل –فى لجنة الثقافة العلمية وغيرها–: أ.د. سمير حنا – ملحق أهرام الجمعة ١٠ مايو ١٩٩٦) حين يقول: "ونتج عن هذا التقدم فى العلوم (الأساسية) ازدهار فرعين من المعرفة البشرية: فقد تقدمت العلوم الإنسانية (علم النفس، واللغويات، العلوم الاجتماعية، الاقتصاد إلخ) تقدما كبيرا باستعمال " المنهج العلمى" فى دراساتها، كذلك حدثت قفزة خطيرة فى استخدام العلم كأساس لصناعة تكنولوجيا متقدمة تساعد الإنسان على إثراء حياته وازدياد عمقها، **وهكذا أصبح العلم مثل شجرة باسقة جذورها هى العلوم الأساسية، وجذعها هو المنهج العلمى وفروعها تنتج ثمارا من العلوم الإنسانية والتكنولوجيا**" ولما كان من أهم مهامنا هو أن نعلم الناس الحوار من منطلق التفكير العلمى، فلنبدأ بأنفسنا، فكان هذا المقال.

بلغنى من هذا المقتطف، ومن المقال، أن منهج العلوم الأساسية "هو" المنهج العلمى، وبالتالى، فإنه متى طبق على العلوم الإنسانية، فسوف تزدهر هذه العلوم..إلخ، كما بلغنى أيضا أن المنهج العلمى فرع من شجرة العلم، التى جذورها العلوم الأساسية ثم فروعها كذا وكيت (راجع المقتطف)، وفى ذلك نقول:

إن المنهج العلمى ليس منهجا واحدا، لا هو كان كذلك، ولا هو كذلك، والمنهج العلمى ليس نتاج العلم، لكن العكس هو الصحيح، والتفكير العلمى هو الأصل فى صياغة المنهج (المناهج) من ناحية، وفى

---

3 - الأهرام: ١٧ / ٥ / ١٩٩٦

صياغة الثقافة العلمية عامة، وإذا كان لنا أن نرتب العلوم بما يعنينا فى الثقافة العلمية فليكن ترتيبها بقدر ما تثرى التفكير العلمى من خلال تنوع مناهجه، وفى ذلك يمكن أن أرتب العلوم إلى علوم الكافة وعلوم الخاصة، دون استبعاد للتداخل طبعا، وأعنى بعلوم الكافة العلوم التى تصل إلى، وتؤثر فى، كافة الناس أى التى لا تقتصر على المختصين، ثم إن من هذه العلوم (علوم الكافة) ما هو فى **متناول ومواجهة كل الناس معظم** الوقت مثل **علوم التربية والعمارة والإعلام**، ومنها ما يمر بوعى الناس انتقائيا أو أحيانا، ولنسم المجموعة الأولى "**علوم المواجهة** "، فهى تأتى أيضا متقدمة لأنها الأكثر تأثيرا والأهم بالعناية ونحن نتكلم عن الثقافة العلمية.

و من بين هذه العلوم التى أسميتها **علوم المواجهة** أنتقى بالذات "**علم العمارة**" وقد تعمدت ذلك لأقدم للناس(والزملاء) علما ليس من العلوم الأساسية فقط، ولا من من العلوم الإنسانية فحسب، وإنما هو كل ذلك، وفى نفس الوقت هو من **علوم المواجهة** كما أسميتها.

ذلك أنه من أهم ما يشكل وعى الناس هو ما يصل إلى حواسهم، وعبر حواسهم من مؤثرات: سواء من الطبيعة مباشرة، أو من الطبيعة المشكلة بفعل فاعل، ومن أهم إسهامات علم العمارة هو حذق طرائق إعادة تشكيل البيئة المكانية (والفراغ) فيما يسمى بالتخطيط العمرانى أو تشكيل الفراغ (الخارجى والداخلي)

وإذا كان علم الجمال هو من العلوم الإنسانية، وعلم الهندسة المدنية (الهيكل التأسيسى وتنظيم الأحمال..إلخ) هو علم من العلوم التقنية البحتة، فأين يقع علم العمارة بين هذاوذاك؟ ثم ماهى وظيفة هذاالعلم فى تشكيل وعى الناس؟

أتيحت لى مؤخرا فرصة الحديث فى ندوة عن **الصحة النفسية والبيئة المكانية** بين جمع من ثقات المهندسين (ندوة أثر العوامل النفسية والجتماعية على التصميم العمرانى ٢٨ / ٤ / ١٩٩٦) وإذا بى أكتشف وجه شبه شديد الدلالة **بين الذات البشرية والعمارة**، وبين **مستويات تشكيل الوعى ومستويات تشكيل الفراغ** فى العمارة وخرجت بخلاصة تـقابـل بين ما هو **نفس وما هو بيت**، وكذلك بين ما هو **كون خارجى، وما هو فراغ خارجى** فى العمارة، فاقتربت من علم العمارة باعتباره علما إنسانيا أساسا، لكنه يستعمل عددامن العلوم المساعدة، ثم إن العمارة والشعر والقانون (الصحيح) والمعالجة النفسية السليمة ينتمون إلى الصادق والعادل والجميل، ربما أكثر من انتمائهم للكم والطاقة والحساب والاقتصاد.

ومن ناحية المنهج فيبدو أن للعمارة علاقة راسخة بالمنهج العلمى الحكائى، بقدر ما هى مبنية على العلم الكمى والحسابات الدقيقة،، فالعمارة – فى ذاتها– حكاية مرئية وثابتة، وهى لا تؤرخ فقط لجماليات عصر بذاته، ولكنها تؤرخ لعادات وتقاليد وحضارة مرحلة من الزمان.

ثم إن العمارة **حوار بين الإنسان والبيئة،** وهى حوار بالحواس وعبر الحواس، وهو حوار متصل ومتبادل:

يقول أ.د. مهندس **سيد التونى** "الطابع العمرانى هو انعكاس للحوار بين الإنسان والجماعة، وبيئتهم، وهو التسجيل المرئى للحوار"، كما يقول بيكون "إن الخبرة العمرانية: تجذب إلى عمقها الأفراد فى خبرة يشارك فيها جميع من يتحركون بداخلها".

وإذا كان **البيت** كما يقول بشلار **هو الوعى بالمكان،** فإن الذات هى **الوعى بالوجود،** والنفس الإنسانية ليست إلا بيتا بل مدينة بأسرها، ولنتذكر أن جمهورية أفلاطون ليست سوى نفسا إنسانية قام بتكبيرها لتسهيل الوصف والشرح حسب زعمه، نعم: النفس مدينة لها أسوارها وحجراتها، ومستوياتها الهيراركية والمتداخلة، ونوافذها، وفراغاتها وتشكيلاتها ومنظوماتها، والعمارة هى نفس ممتدة لها وعيها وإيقاعاتها النابضة، وحيويتها ومستويات شعورها، وعلى ذلك يصبح تأثير كل منهماعلى الآخر تأثيرا متبادلا ومحاورا **بما يمثل نموذجا رائعا لربط العلم بالتطبيق حالة كوننا ننظر من زاوية تشكيل الوعى بما يحقق مفهوم الثقافة العلمية**

وثمة ربط آخر شديد الدلالة تقدمه العمارة فى توضيح مفهوم الثقافة العلمية وهو التأكيد على الوصلة بين العلم والأدب: الشعر خاصة، **فما العمارة إلا قصيدة شعر قبيحة أو جميلة،** وقد تعجبت من وفرة الشعر الوارد فى وصف العمارة من مهندسين وفلاسفة، ناهيك عن ما هو نقد للشعر، فكم تتكرر كلمة " معمار القصيدة"، وبناء القصيدة، فى سياق النقد،، وقد شدنى تعبير د. ناصر الدين الأسد: وهو يصف قصيدة النثر بأنها **جدران سوداء، لا تكشف عن شيء مما وراءها** (أخبار الأدب: ٢١ إبريل ١٩٩٦).

ثم ننصت إلى لغة الشعر فى مجال العمارة: يقول **كارير** واصفا الشارع: (تلك)...السجادة الأسفلتية، قناة لخدمة حركة السيارات" **ويقول ماكس بيكر** (كما اقتطفه بشلار): **البيوت مربوطة بالأسمنت حتى لا تغوص فى الأرض أو: البيوت تشبه الأنابيب التى تشفط البشر فى داخلها بتفريغ الهواء.**

ثم ننتقل إلى استعمالات الشعر، وعلم السيكوباثولوجيا فى وصفهما للنفس باعتبارها بيتا له أسوار وجدران ونوافذ وطوابق وستائر، فى حالة حوار مع المحيط من حوله، يصد العواصف أو يستسلم للاقتحام، (وأعتذر لاقتطافى من شعرى الخاص،، فقد كان الأقرب والأجهز)

ذات مرة صورت خبرة مريض فصامى جاء يعانى مما نسميه "فقد حدود الذات" إذ تصبح نفسه كيانا مفتوحا لانتهاكات الغير وتأثيراتهم، قلت فى ذلك: **حين يشف جدار النفس يصير النظر إلى المرآة جريمة، فلماذا نظروا هم من ثقب الباب؟**

(ثم) **<u>أبنى حول الـــمـــلك الشائع أسوار الستر، أضع بأعلى السور شظايا الصد</u>**

(إلى أن قــلت) **ماذا يتبقى إن كشف تبصصهم أن الباب المقفول، ليس وراءه، إلا عجز الفعل، إلا حسن القصد، أو سوؤه، فالأمر سواء.**

فيحضرنى كل من **جروتروود شين (عمارة)** وهو يعيب تجاهل جماليات تشكيل الفراغ: **إنك حين تذهب إلى هناك لا تجد هذا الــ"هناك"** ثم أرجع إلى القصيدة.(أن الباب المقفول ليس وراءه إلا عجز الفعل) **فيقفز بلويلر (أول من استعمل لفظ الفصام سنة ١٩١١)** وهو يصف الفصامى أنه "كالباب المقفول الذى ليس وراءه شيء. يا للتوازى العجيب وكأنهم يقولون نفس القول كل من زاويته الخاصة.

ومرة أخرى اشتكى لى مريض باضطراب وجدانى جسيم (مختلط: يغلب عليه الاكتئاب):اشتكى من أن كل ما تقع عليه عيناه **يدخل ذاته** عيانا بيانا فى عاصفة مقتحمة دون ترتيب،،وأضاف أنه: **فــــــتح على مصراعيه،** فصورت ذلك شعرا يقول: **تقتحم الريح الأسوار، تــنـــتهك الأسرار، ويطير الزنبور يطارد جمعا من نحلات شغالة، والقبرة، وأنثى الهدهد، وفراشة، يعلو الهم فيخترق السقف العارى، فيعيد وليد أحمق رص اللبنات.**

(إلى أن قلت) **وعيون بوابة، سقط المزلاج، والآذان نوافذها مفتوحة**

لاحظ من فضلك: جدار النفس، الأسوار، السقف العارى، رص الـــلبنات، الآذان النوافذ، والعيون البوابة،

فإذا كان أفلاطون قد قال " كما تكون الدولة يكون الإنسان"، فإنه يمكن قياسا أن نقول: "**كما تكون العمارة تكون الأنفس الصانعة لها والمحيطة بها**".

ولو صح القياس أكثر، مع الحذر من التسطيح، لوصفت أشكالا من العمارة مقابل كل من أمراضنا النفسية:أنظر حولك ترى "**فصامية** " **العمارة:** وأعنى بذلك هذا التناثر المضطرب بلا تمحور جمالى يجمعه ولا فى الخيال

لذلك أسميت هذ الخلط المشتت: عمارة الــ"كيفما اتفق": والعمارة التناثر، والعمارة النشاز، والعمارة القذى (متجنبا كلمة العشوائيات لكثرة استعمالها واحتمال الخلط مع الفطرة أو التلقائية)، ذلك أن مثل هذه العمارة التى **تلفظها الغيطان** إذ تأتيها التماسيح المسلحة تنقصها من أطرافها قد وصفها الأخطل من قديم حين يقول:

ولكن قذاهــــــــا زائر لا نحبه   ترامت به الغيطان من حيث لا ندري

ويمكن – بالقياس أيضا– أن نصف **ذاتوية العمارة،** فى مقابل الزملة الذاتوية فى المرض النفسى والعقلى، حيث تستقل كل عمارة زجاجية قبيحة بمن فيها وما فيها دون أدنى أمل فى تواصل ولو بــ " صباح الخير" فى بئرالسلم، مثلما ينغلق المريض الذاتوى على نفسه ولا يعيش إلا فى خيالاته وأوهامه. (وصفت مركز بومبيدو الزجاجى فى باريس، بعد أن جرحنـــى قبحه، فى قصيدة بعنوان" البيت

الزجاجى والثعبان"، قلت فيها: **يسعى ثعبان البشر على جدران البللور العارى، يفضحنا، فنعود إلينا، نتعرى أكثر، نتكاثف، نتوارى فنرانا أقبح).**

ثم عندك **العمارة العدوانية** وهو ما أصف به عمارة ما، أو حتى مدينة ما، وهى تغيرعلى كل من السماء والطارق، وعلى القمر إذا **تلاها**، بنفس قدر عدوانها على تشكيلات وعى ساكنها ليصير **قطعا من الليل مظلما**.

وأخلص من هذه المقدمة إلى القول:

إذا كان أفلاطون قد كتب على أكاديميته "لا يدخلها إلا مهندس"، فإن الأجدر بنا اليوم أن نكتب على أقسام العمارة فى كليات الهندسة ومعاهدها" لا يدخلها إلا شاعر"

إن هم لجنة الثقافة العلمية لا يقتصر على مسئولية عرض العلم مبسطا، ولا على الترويج لمعرفة علمية حديثة، ولا على الدعاية للعلوم البحتة دون العلوم الإنسانية (ومنها علم الجمال،وبعض علوم العمارة كما أسلفنا)، بل إن **همها الأول هو توظيف علوم المواجهة خاصة فى خدمة تشكيل الوعى بما يسمح لنا أن نأمل فى دخول أولمبياد التنافس الحضارى الشريف حالا ومستقبلا.**

والمطلوب من علوم العمارة – كمثال – **من وجهة نظر الثقافة العلمية** هو أن تساهم فى تشكيل الوعى بقدر ما تساهم فى إيواء الناس، ثم إن العمارة والفن التشكيلى وعتاد الحاسوب والرقص والموسيقى هى تقسيمات على اللحن العالمى، إذ يمثلون **اللغة العالمية التى هى البديل الإيجابى للنظام العالمى الجديد المزعوم.**

ولكن هذا حديث آخر.

الحضارة والمدنية

والثقافة العلمية4

إذا كانت اللغة ليست وعاء يملأ ثم يفرغ محتواه إذا ميلته حسب الطلب (المقال الأول)، وكانت العمارة هى تشكيل حى يؤثر ويتأثر بتشكيل ما هو وعى بشرى محيط (المقال الثانى)، فقد آن الآوان أن ننتقل خطوة رلى النظر فى هذه الوصلة التى تصل بين الكيان المادى خارجنا، وبين طريقة استقبالنا له وحوارنا معه، وهذا المقال يمثل محاولة فى هذا الاتجاه.

فنحن نستعمل هذه الأيام كلمتى الثقافة و الحضارة بوفرة وافرة، وإلى درجة أقل كلمتى: **المدنية والعمران.**

ولما كان هم الثقافة العلمية – كما ذكرنا – هو تشكيل وعى الناس من خلال الممارسة اليومية لمعطيات العلم ومنهجه، فقد وجب علينا الوقوف أمام هذه التسميات فى محاولة توضيح كيف تشكلت

---

4 - الأهرام: ٢١ / ٦ / ١٩٩٦

الحضارات، وكيف تتشكل الحضارة المعاصرة، وما هو دور العلم ودور المنهج العلمى بوجه خاص فى هذ ا التشكيل

ولنبدأ بالتذكرة بالنقلة من البربرية إلى المدنية حيث يرجح أغلب المؤرخين والمفكرين أن المدينة، وماتمتعت به واكتسبته من أدوات هى المسئولة عن تكوين المدنية التى هى مرادفة – فى أغلب الأقوال والمراجع أيضا– لما هو حضارة، أى أن العمران، بمايقدم من فرص وخدمات وتنظيمات تقوم بها مؤسسات هو المسئول عن نشأة واستمرار الحضارات

فإذا صح ذلك تاريخيا ولغويا، وصحيح بعضه، فإننا لا شك نحتاج إلى وقفة مراجعة عصرية دقيقة نقف فيها الآن متسائلين: هل يصدق نفس الأمر فى أيامنا هذه "هكذا" مباشرة ؟، **بمعنى: هل مجرد اكتساب أداة العمران هو أمر كاف لإنشاء حضارة** (من أهم أدوات العمران الأن: الحصيلة العلمية المتاحة للشخص العادى، والحصيلة التكنولوجية فائقة المعاصرة الجاهزة لاستخداماته)، أم أن الأمر أصبح أكثر تعقيدا وأعقد إشكالية ؟ الإجابة عندى تميل إلى فرض احتمالات أخرى بديلة ولعلها مفيدة.

فالملاحظ الآن أن توفر الأداة العمرانية لفئة من البشر فى أكثر المدن تمدنا وأوفرها تقنية ومعاصرة لم يعد كافيا لحسن استعمالها لصالح البشر، يصدق ذلك فى كبريات المدن الغربية التى تضخمت أدواتها وتطاول بنيانها بقدر ما تضاءلت علاقات بنيها وتماسك أسرها وإبداعات رجلها العادى، كما يصدق فى عوالم التضخم التكنولوجى المتجاوز والمعطل للتنمية البشرية فى الدول الحديثة الثراء المفرطة فى التقليد.

أفلا يوحى ذلك بضروة التأكيد على التفرقة بين ما هو حضارة وما هو مدنية، بغض النظر عن ارتباطهما تاريخيا، وعن أصولهما اللغوية، آملين أن يكون فى هذه التفرقة ما يساعدنا على تحديد موقعنا وترشيد توجهنا؟

إذن نبدأ بإعادة تعريف المدنية بما يناسب العصر على أنها:حالة تتوفر فيها وسائل العمران المدنى، من أول أدوات الحياة الراتبة من مؤسسات وخدمات، إلى إتاحة المعلومات المختلفة والتقنيات التواصلية على مستوى العالم المعاصرللشخص العادى.

أما الحضارة فينبغى أن يرتبط تعريفها بإضافات نوعية تحدد موقف الإنسان المستعمل لهذه الأدوات، وفى ذلك نقترح إضافة: **وإنما تسمى المدنية حضارة إذا ما وعى إنسان عصرها مسئولية امتلاك هذه الأدوات لدرجة تسمح بممارسة استعمالاتها لما يحقق تعمير الأرض– لا خرابها–، وتطور البشر– لا تشويههم أو تناثرهم وتمزقهم،** على أن يقاس تطور البشر هذا ليس فقط بإنجازات الصفوة فى مراكز البحث وعروض المتاحف وبراءات النشر، ولكن يدخل فى التقييم والقياس نوعية تعامل الناس مع بعضهم البعض، وعمق مشاعر الأخوة الإنسانية التى ترسى قواعد العقد الاجتماعى السليم، وكذلك

القوانين العرفية التى تحكم الفعل اليومي. بل إن هذاالوعى (الحضارى) قد يتم ويتنامى بأقل قدر من الأدوات إذا ما توفرت الأعراف والأخلاق والممارسات الإيمانية والدينية القادرة على بناء الإنسان بأى قدر متاح من أدوات المدنية

ونظرة إلى ما هو نحن، وإلى ما حولنا لا بد أن تؤكد فائدة هذا التمييز، بحيث يمكن بقليل من التباديل والتوافيق إعادة تقسيم عالمنا المعاصر من خلال درجة توافر هذين البعدين وعلاقتهما بعضهما ببعض، وأعرض هنا لبعض أعراض هذه التباديل كما يلى:

١- مدنية فائقة وحضارة مبعثرة أو مترهلة أو متراجعة

وهو ما نجده فى دول فائقة التقدم محكمة القوانين صلبة المؤسسات، تفيض بالجديد المحكم المنمط بشكل عام، يتبدى ذلك فى دور العلم، ومعطيات الصناعات، ومعارض الفنون، ومراكز الأبحاث، ولكن ما أن ننتقل إلى الشارع بعد السابعة أو الثامنة مساء فى كثير من مدنها حتى نجد الأمر مختلفا، فالناس تتلفت، وتخاف أن تحيى بعضها بعضا، وتغتصب وتنتهك، وثمة قوانين تحتية تتحكم فى المشاعر والعلاقات والحياة مثل:(١) قانون الرعب والقنص، و (٢) قانون الكر والفر، و(٣) قانون البقاء للأخطر والأسرع، إلى آخر مواد الدستور السرى للمافيا والإرهاب!! (*مثال: الولايات المتحدة الأمريكية، المدن الكبرى*)

٢- مدنية وافرة حديثة مستوردة و حضارة زائفة ومقلدة

وهو ما نجده فى دول حديثة التمدن فائقة الثراء حصلت على كل وسائل الدول المتقدمة السالفة الذكر، وأكثر، لما لها من إمكانيات مادية، فرصفت الشوارع، وأرست وسائل التوصيل والمواصلات، وخططت المدن ووفرت كل وسائل الرفاهية لأغلب أفراد شعوبها، لكنها لا تضيف، ولا تبدع، ولا تطور، ولا يتحاور أبناؤها ندا لند، بل إن آحادها الأقدر فالأقدر –مادة وأدوات – قد قلبوا الليل نهارا، وبالعكس، وقد أصبحت " الرفاهية "فى هذه المجتمعات هدفا فى ذاتها لذاتها وليست وسيلة لإطلاق القدرات واختصار أوقات المعاناة لملئها بالإبداع والموضوعية (*مثال: بعض الدول السلبية الثراء مثل بعض دول الخليج – أو بروناي!)*

٣- مدنية متطورة متواضعة، وحضارة واعدة متوثبة

وهو ما نجده فى دول لا تملك وفرة فى وسائل العمران ابتداء، لكنها تجتهد فى امتلاك ما يلزم منه، بقدر قدرتها، وكلما ملكت وسيلة جديدة استعملتها فى الفعل اليومى والدفع العام والتنمية بأغلب (أو كل) طاقتها، فهى تقفز فوق قمم التقدم رغم أن وسائل المدنية المتاحة لها هى أقل من الفريق الأول والثانى حتما، فهى تعد بتأسيس حضارة بديلة، لكنهامعرضة فى نفس الوقت إلى مضاعفات الفريق الأول مالم

تقدم نوعية جديدة للتنمية البشرية والتطور الإنسانى (مثال: النمور الأسيوية الحديثة بمافى ذلك أندونيسيا)

٤- مدنية مغلقة ومتناثرة وحضارة شكلية

وهو ما نجده فى دول تحصل -أو تحاول الحصول- على كم وافر وحديث من وسائل التقدم والمدنية، لكنها توظفها فى بؤر متناثرة، تستعمل من الظاهر وراء أسوار أبراج ما يوحى أنه علم، أو فى حدود بروتوكولات الأبحاث المغلقة والهامشية، أى التى لا تصب لا فى الفعل اليومى ولا فى الوعى العام، وإنما تدور حول نفسها بهدف النشر والمكافأة. *(مثال: مصر ودول مشابهة فى العالم العربى والثالث)*

٥- مدنية ضعيفة وحضارة تقاليدية أو دينية راسخة

وهى المجتمعات ذات التقاليد الآمنة والأخلاق الغيرية، عرفا أو تدينا وإيمانا، وهى مجتمعات تملك أقل قدر من وسائل العمران ورفاهيته، مثل مجتمعات الصيادين، وزارعى اللؤلؤ فى الخليج، أو مجتمع المسلمين الأوائل، (تاريخا) وربما مجتمعات سكان الواحات والهنود الحمر: حاليا. وهى مجتعات ينقصها الكثير من معالم التمدن والحداثة، وكذلك من أدوات الرفاهية ومعلومات العصر، لكنهاتحافظ على تقاليد فائقة الرقى من حيث دماثة الخلق، أو إكرام الضيف، أو التعاون التلقائى الخلاق، أو العقد الاجتماعى المؤمن للجميع أهلا وضيوفا، أو حيوية العلاقة بالطبيعة، أو فعل الإيمان الخلاق، وتوصف هذه المجتمعات أحيانا بواسطة أهل مجتمعات الوفرة المدنية الظاهرة، توصف بالبدائية والقبلية دون النظر إلى نوع تماسكها وجوهر حضارتها. *(مثال: بقايا ماذكر فى صدر هذه الفقرة هنا وهناك، مثل بعض قرى جنوب سيناء، والواحات)*.

والآن ما هو دور ما يسمى بالثقافة العلمية فى كل هذا؟

يبدو أن الثقافة العلمية سوف تنتهى إلى تحديد دورها فى: **محاولة الوفاء بتسهيل الوصلة بين الأداة والغاية، أى بين التمدن وتطور الإنسان، أى بين المدنية والحضارة**، يبدأ ذلك بتهيئة وعى جاد متقشف يعانق الحياة فى اتساق موجه، وينبسط مع الطبيعة بقدر ما يستوعب المعارف الأحدث، وبالتالى يحيل المدنية إلى حضارة.

وبألفاظ أخرى: إن دورالثقافة العلمية ليس مجرد إضافة معلومة أو شرح منهج، وإنما دورها هو فى أن تساهم فى التوجيه إلى كيفية توظيف المعارف الموضوعية والمناهج العلمية **حتى تصيرالمدنية حضارة**، أى حتى تصبح الأدوات الأحدث - بما فى ذلك الإنجاز العلمى والمنهج العلمي- وسيلة بناء وعمران لكل من المكان والزمان والإنسان، فهى الحفز إلى أن يتوجه الوعى العام إلى الخير العام من خلال حسن استعمال معلومات العلم وتسهيلات التكنولوجيا، وليس مجرد إتقان استعمالهم، أو الاجتهاد فى تطويرهما لذاتهما

وهذا أمر منوط بكل عالم وسياسى وإعلامى وتربوى وواعظ يمارس مهمته بوعى يلح عليه دائما أنه "**إذن ماذا؟**"، وإنما **تقتصر مهمة الأفراد (اللجنة) الذين تصدوا للتأكيد على هذه الوصلة بين المدنية والحضارة على تبصرة كل هذه الفئات بمعالم النقلة الضرورية بين الأداة والغاية**، وعلى ضرورة التأكد من قياسات الإنجاز بمعايير تتخطى التطاول فى البنيان، ورطانة الحاسوب لذاتها، ويشمل ذلك **توثيق الصلة بين المعلومة وتوظيفها، وبين أهل المعرفة وأصحاب المصلحة ، وبين المنهج وفرص تطبيقه فى الحياة اليومية.**

ويمكن أن نطرح بعض إشكالات الاختيار الذى يمكن أن تساهم فيه الثقافة العلمية من حيث المبدأ **بما يسمح لأكبر قدر من الناس بممارسة ما هو تفكير نقدى، وموقف إبداعى**. خذ مثلا:

(١) هل الثقافة العلمية هى التأكيد على معطيات العلوم الطبيعية فقط أم أنها ممتدة إلى استلهام العلوم الإنسانية بمناهجها المتميزة حتما(مثل استلهام المنهج الحكائى فى العلم والأدب والفن والمثل الشعبى والوعى الجمعى، كمصدر للمعارف الموضوعية) فى تشكيل وعى الناس بما هم (راجع العمارة والشعر)، وما يمكن أن يكونونه من خلال الفكر الناقد والعقل المبدع؟

(٢) هل المطلوب لتعميق الثقافة العلمية هو مزيد من الصحف اليومية (الإعلانية..، قال ماذا ؟ للتأكيد على اختلاف الرأي!!)، أم أن المطلوب هو مزيد من الكتب الرخيصة والواضحة المثيرة للحوار والنقد، وليست فقط المبسطة للمعرفة والنقل ؟

(٣) هل نواجه الجمود الدينى بنصوص أكثر تفتحا لكنها – رغم كل شيء– وصية فى ذاتها، بما هى قديمة وثابتة؟ أم تكون المواجهة بتنمية الفكرالنقدى الحر الذى هو ما يميز ما اختص الله الإنسان به لتعمير الأرض وتطوير أنفسنا والناس؟، والذى به نتناول ونستهلم أى نص، وكل نص؟

إن مهمة الثقافة العلمية هى أن تحرك **كل النشاطات المدنية لتصبح لبنات فى صنع الحضارة**

وظيفتها أن تسخر المتاح من المعلومات العلمية لتصبح – دون أن تسمى بالضرورة معلومات علمية– **فى متناول الوعى العام فى الفعل اليومى.**

وظيفتها أن تقدم المنهج العلمى فى التفكير لكل الفئات من كل الأعمار، حتى يتضح أن العامل الأمى والطفل على حد سواء يمكن أن ينتميا إلى الثقافة العلمية إذا ما أحسنا نقد المعلومة ثم وضعهافى مكانها، وأن الشاعر الثائر (وليس فقط العالم المتخصص)إنما ينتمى إلى الثقافة العلمية بقدر موضوعية خياله وواقعية تشكيلاته، وهكذا

وظيفتها أن تلغى تقديس وتفردالمنهج الكمى الإحصائى **دون الاستغناء عنه**، فهو منهج رائع يحقق ما تحققه عملية جرد المخازن وتنظيمهافى أى مصنع حديث، ولكنه ليس هو المصنع المنتج المبتكر

وظيفتها أن تبحث عن موقع المعلومة العلمية والمعرفة الموضوعية من وعى الناس وعن أثر هذه

وتلك فى الفعل اليومى (دون وصاية طبعا)، ليكون ذلك هو المقياس الحقيقى الذى نصنف به أنفسنا بين المساهمين فى صنع الحضارة المعاصرة، والمشاركين فى الحوار مع الحضارات الأخرى سعيا إلـــى الأشمل نفعا، والأبقى أثرا.

الثقافة العلمية وتعدد مصادر المعلومات[5]

حدس الإنسان العادى

واحتكار المعرفة

كان **الهدف الأول** من نشر سلسلة هذه المقالات هو تعريف القارئ غير المتخصص بمفهوم الثقافة العلمية، إذ تتميز عن كل من العلم البحت، والنشاطات الثقافية العامة.وقد آن الأوان للتذكرة بعلاقة العلم، كمصدر رائع للمعارف، بالمصادر الأخرى التى تسهم فى تشكيل الوعى، ولا تتعارض بالضرورة مع ما هو علم، ولا مع هو منهج علمى، وفى ذلك نقول

١- إن حس الشخص العادى ومنطقه البسيط – حتى لو أخطأ – لا بد أن يؤخذ فى الاعتبار من جانب من يتصدى لتقديم معطيات العلم له، وخاصة فى البلاد النامية (أو المتخلفة أو البدائية أو ما شئت من السباب!!!)، ذلك أن معطيات العلم تتفاعل أكثر فى هذه البلاد مع مصادر أخرى للمعارف مثل التقاليد، والدين الصحيح والدين الكاذب، والحدس الشعبى الصادق والكاذب أيضا، وليس المطلوب هو أن يقف العلم فى مواجهة هذه المصادر وإنما المطلوب أن يستوعبها، فخذ مثلا مسألة الجن والإيمان به، فثمة إيمان دينى لا يضر الناس بل ينبههم إلى عوالم أخرى داخل الذات أو خارجها، لم يدخل الدين بالضرورة فى هذا التحديد وإن كان المفسرون اجتهدوا كل فى حدود إطاره المعرفى، وثمة تخريف بلا حدود يدور حول هذه المسألة، كما تُحييها، سلبية شعبية تنمى التسليم والتخدير والاعتمادية كما يوجد نشاط تجريبى وجمعيات تتكلم عن الأرواح وليس عن الجان، إلى آخر هذه المصادر، فماذا يكون موقف العلم التكاملى إزاء كل هذه المصادر؟

أقول إنه ليس بالضرورة أن يقف العلم موقف المواجهة والصراع، كما أنه ليس ملزما أيضا بإيجاد تفسيرات تعسفية لما يجذب الناس، كل بلغته، إلى مثل هذا النوع من المعارف والخبرات، لكنه يمكن أن يبحث فى ملفاته عن معارف موازية (وليست مفسرة حتما)، ودون الدخول فى تفاصيل فإن فكر كارل جوستاف يونج يضيئ جانبا من القضية من خلال تطبيق بعض مقولاته عن اللاشعور الجمعى والرموز الأثرية وغير ذلك، وفكر آخر أحدث مثل التحليل التفاعلاتى (إريك بيرن) يتكلم عن تعدد

---

5 - الأهرام: ٢٨ / ٦ / ١٩٩٦

الذوات داخل الذات الكبرى، وأى تفكك للذوات يمكن أن يسقط إلى الخارج ويعاد استقباله ليس بالضرورة من خلال الجنون (الذهان) وإنما أكثر من خلال ما يسمى الانشقاق الذى يمكن أن يصيب حتى بعض الأسوياء فى بيئة مهيــئه، ثم تعود هذه الذوات (الداخلية) المــسقطة تظهر فى حضورات تسمى من كل فئة باسم يناسب ثقافتها واحتياجاتها ودرجات نضجها وتوظيفها، كل هذا محتمل وواضح، ولكنه ليس بالضرورة الحقيقة النهائية.

فالمسألة هى احترام **المعارف الأخرى والسير بجوارها لاحتوائها أو الحوار معها**، وهذا هو السبيل الحقيقى لإثراء العلم من جهة، وتطويع **المعرفة الأخرى** من جهة ثانية، ويكون ذلك بديلا عن التفسير التعسفى أو عن الإنكار التعصبى المبنى على التعامل مع العلم باعتباره دين له قدسيته، وكل ما خالفه، أو بتعبير أدق ما لم يتكلم لغته، فهو باطل ومرفوض، ناهيك عن الاحتقار المصاحب لهذه المشاعر التعصبية مثل أى دين ضيق متعصب.

٢- إن المنهج العلمى ليس واحدا، فبالإضافة إلى ما هو تجربة وإحصاء وأرقام، وبالإضافة إلى ما هو تفسير ومنطق وبرهان، امتد المنهج العلمى ليحترم الوعى الشعبى **كمصهر للمعرفة** يمكن أن يخرج بنتائج وتعقيبات لها مصداقيتها فى ذاتها، وأيضا امتد ليعيد لــ"الحكاية" قيمتها العلمية مع افتراض شروط موضوعية لتقييمها، وأيضا دخلت مقاييس أخرى تحدد مصداقية المنهج مثل موضوعية المصدر البشرى الفردى أو الجماعى، ومثل التماسك الداخلى للمعلومات.

وكل ذلك يقول: **إن التثقيف العلمى الحقيقى هو الذى يسمح بتنمية التفكير النقدى لدرجة يسهم فيها فى تقييم المنهج مصدر المعلومة** (كما جاء فى أول حديثنا هذا)، ولا يخفى أن المصدر الحكائى للمعرفة هو أقرب إلى أغلب أنواع السلوك فى الحياة اليومية، وليس معنى ذلك أن كل حكاية علم، أو بتعبير أدق أن كل ما يحكى هو علم، لكن **الحكاية المعرفة هى جماع ناتج ترسخ وأفاد، أو هى إعلان استنتاج رؤية عامة اختبرت بالزمن فبقيت، أو هى تصوير مباشر لسلسة من الاتساق الداخلى الذى أدى إلى ظهورها وبقائها**، وغير ذلك مما ليس هذا مكانه، الذى يهمنا هنا هو أن الناس عامة "**تحكى**" معرفة من هذا القبيل، وأن علينا أن نحترم هذه المعرفة (دون تسليم أو تقديس) وألا نقيسها بغير مقاييسها

٣- إن العلم فى ذاته لا يصنع حضارة ولا يسعد إنسانا، وإنما الذى يصنع الحضارة ويطور البشر ويضيف للإبداع هو **طريقة تناولنا لمعطيات العلم**، ونقدنا لها، انطلاقا من مبدأ أن العلم كائن مرن دائم التغيير بالحذف والتعديل والإضافة، وأن ما لا يقبل الخطأ ليس علما، ومرة أخرى فإن تقديس العلم المحدود يجعله أقرب إلى الدين الجامد منه إلى العلم المتجدد.

٤- إن ناتج العلم فى ذاته - كما هو شائع وغالب- هو كم هائل من معلومات عظيمة، لكن القضية لا تتوقف عند الحصول على كم المعلومات التى تعتبر بمثابة أبجدية جاهزة، وإنما يصبح العلم ثقافة بقدر ما تستعمل أبجديته فى صياغة الجمل المفيدة (الحياة المفيدة)

٥- إن تبسيط العلوم هو نشاط هام ومفيد تماما، ولكن ينبغى الحذر من أن يسيء إلى العلم إذا ما تعمد المبالغة فى تجنيب المتلقى المشاركة فى الفهم والتشكيل، وذلك حين يكون هم التبسيط أن يقلب احتمالات العلم إلى بلاغات نهائية بتعليمات راسخة غير قابلة للنقاش تحت دعوى التبرير القائل: نحن فى مجال التبسيط ولا نريد أن "تلخبط " الناس.

٦- إن التكنولوجيا ليست نتيجة مباشرة لمعطيات العلم، بل كثيرا ما تكون التكنولوجيا سابقة على العلم، تلك التكنولوجيا النابعة من الفعل اليومى المباشر، الهادف إلى تسهيل الحياة، واختصار الوقت، وتنويع الأداء، ويكون العلم حينذاك محاولة لفهم ما تؤديه التكنولوجيا بكفاءة فعلا.

ونخلص من ذلك بتحديد جديد يقول:

إن تحديد مهمة الثقافة العلمية ليست فى إتاحة أكبر قدر من المعلومات للناس، ولا فى تمجيد العلم وتقديس المنهج العلمى، ولا فى عرض فضائل العلم وفوائد اتباعه، ولا فى تبسيط العلم مع احتمال تسطيحه، وإنما مهمتها هى:

١- أن نتعلم ونعلم الناس كيف يقرؤون المعلومة، أى معلومة، وكيف يضعون لبنات العلم فى مكانها المناسب فى صرح الحياة. أى كيف تتكون جمل الحياة المفيدة من أبجديات وظلال كثيرة من أهمها الأبجدية العلمية

٢- أن نتعلم ونعلم الناس كيف يصبح العلم ثقافة، لا حفظا وشطارة، ولا دينا واحتكارا للحقيقة، ولا طبقة واستعلاء

٣- أن نتعلم ونعلم الناس أن تعدد مصادر المعارف **لا يلزم أحدها بتفسير الآخر**، فلا الدين -مثلا- ملزم بتفسير معطيات العلم، ولا العلم ملزم بتفسير نصوص الدين، فلكل لغته، وفى نفس الوقت لا يمكن فصلهما من حيث أنهما (وغيرهما من مصادر المعرفة) هما النسيج الأساسى للوجود البشرى، وفى نفس الوقت من حيث أنهما يتوجهان وجهة واحدة نحو الأرقى والأبقى والأنفع والأكثر بشرية وعمقا واتساعا

وهذا يحتاج إلى مزيد من الأمثلة التطبيقية مما سنحاوله ونحن نفتح ملف **كروية الأرض**، وكيف قدمه الفن إلى الناس البسطاء، ثم ننظر كيف نقرأ ظاهرة جنون البقر حاليا على مستويات كل من الإعلام، والعلم، ثم الثقافة العلمية.

وهذا هو الحديث القادم.

تطبيقات فى الثقافة العلمية

من دوران الأرض إلى جنون البقر[6]

نبدأ بمعلومة علمية بسيطة وقديمة وشائعة تقول " **إن الأرض كروية تدور حول نفسها**.."

فمن الناحية التاريخية نحن نعلم أن هذه الحقيقة حين ظهرت قد قلبت الدنيا رأساعلى عقب كما يقولون، وهذا ليس تعبيرا مجازيا، ذلك لأنه بعد هذا الكشف وما دفع ثمنا له، تغيرت مفاهيم حياتية، وتراجعت وصايات دينية، وتحطم غرور بشري، وانطلقت مناهج موضوعية، كل ذلك حدث وتم وأصبح تاريخا يروى صباح مساء، ولم يعد أحد يشك فى أن "الأرض كروية تدور حول نفسها "

ولكن ما مناسبة الرجوع إلى هذا التاريخ القديم ونحن سنة ١٩٩٦ بعد الميلاد؟

تصور أنك طرحت (على نفسك أو على أحد الناس) عددا من الأسئلة يدور حول هذه الحقيقة (ليس أن الأرض كروية أم لا...) ولكن فى محاولة أن نختبر عمق معايشة هذه الحقيقة القديمة البسيطة الرائعة التى اختفت فى أرضية ما يسمى البديهيات، مع أن المتأمل فيها بحق حتى اليوم يمكن أن يعيش تغيرات تصبغ كل حياته، ولكن دعنا نفصل بعض الأسئلة التى اقترح أن تراجعها كالتالي:

١- كم شخصا فى مصر يدرك بوعى معاش (وليس فقط يعرف أو يحفظ) معنى أن الأرض كروية تدور حول نفسها، أى أنه يسمح لنفسه أن تقفز إليه هذه المعلومة فى أرضية فكره دون حضورها اللفظى، وهو يقرر لنفسه شيئا أو يبدى رأيا أو يؤدى فرضا.. إلخ؟

وهل يمكن، وهو ينظر بوعى طازج إلى هذه الحقيقة البسيطة القديمة، أن يتغير تفكيره من حيث نظرته للكون، وإحساسه بذاته، وعلاقته بالقرش، وعلاقته بالناس، وبالزمن، وربما بالخالق الأعظم سبحانه وتعالي،

وهل يمكن أن يمتد هذا الوعى إلى موقف موضوعى نقدى لبعض التفاصيل الدقيقة مثل طرق العلاج، وتأثير الجان... إلخ؟

٢- ما توزيع أعمار هؤلاء الذين لا يدركون (يعيشون) هذه الحقيقة ومثلها؟

٣- كم واحد يرفض فتوى يقول بها شيخ مسجد فى قرية، أو بدروم، تشكك فى هذه الحقيقة مستندة إلى تفسير(قرأه أو طرحه) يقول إن كروية الأرض تتعارض مع قوله تعالي" والأرض بسطناها"

٤- على أى أساس يكون رفضك لهذه الفتوى (إن رفضتها):

(ا) لأن من أفتى جاهل فى الجغرافيا ؟ أم

---

6 - الأهرام: ٥ / ٧ / ١٩٩٦

(ب) لأن هناك تفسيرات أخرى للآية ؟ أم

(جـ) لأن هناك آيات أخرى تنسخ هذه الآية ؟ أم

(ء) لأن هذه الحقيقة قديمة وعلمية ومثبتة وراسخة ولا يمكن معارضتها إلا بلغتها، مهمـا صـدرت فتاوى ضدها؟

٥- كم عدد من يبحث عن هذه الحقيقة اجتهادا أو تعسفا ليثبتها من نص دينى قبل أن تـصبح يقينـا عنده؟

ولا أتمادى فى طرح هذه الأسئلة التى تبدو بديهية رغم أن إجابتها – كما أتصور – ليست كذلك، فأنا أرجح أن هناك غالبية غالبة سوف ترى أن هذاحديث لا لزوم له أصلا، حيث أنه لـن يقـدم ولا يؤخر، وغالبية أخرى سوف تعتبر المسألة فكاهة لا أكثر، وأيضا قد يشير عدد هائـل إلـى أن هـذه معلومة جغرافية قديمة لا لزوم للرجوع لها ما دمنا لن نمتحن فى الإبتدائية من أول وجديـد. وفريـق آخر سوف يظن بك (بي) الظنون ..إلخ

ورغم كل ذلك فإننى أتصور أن الوعى الحقيقى بدوران الأرض فى فلكها الممتد إلى أكـوان نعلمهـا وأكوان لا نعلمها مع القدرة على تأمل مغزى ظهور هذه المعلومة هو أمر شديد الدلالـة فـى تكـوين الأرضية اللازمة التى تترعرع فيهاما يسمى بالثقافة العلمية، فكيف يمكن أن يتم ذلك ؟

فرصة أن أعترف الآن أننى لا أمل من مشاهدة مسرحية السكرتير الفنى لعبد الوارث عـسر وفـؤاد المهندس وعبد المنعم مدبولى (تعمدت هذا الترتيب)، وما زلت أنتبه فى كل مرة إلى أن هذه المسرحية البسيطة والمقتبسة فى الأغلب تخدم أغراض الثقافة العلمية – فى بلدنا – أكثر مـن أى محاضـرة أو دعاية علمية أو معرض كتاب، وهى تعرض فيما تعرض لمسألتين فى غاية الحساسية: الأولى تتعلـق بموقف التدين المصرى المسلم الحلو السمح من مسألة الحب والغزل، تذكر (فى الفصل الأول) منظـر ومنطق الشيخ خميس (عبد الوارث عسر) وهو يعلم ياقوت أفندى (فؤاد المهندس) فـن الغـزل للتقـدم لبنت الناظر، والثانية هو ما ظهر فى أرضية الأحداث عن كروية الأرض، وأنها "بتلف، حقيقة ومجازا (ويمكن أن تقارن المسرحية برمتها، وخاصة الأجزاء الخاصة بالمدرسة، وبالنقلة الاجتماعية، بالأجزاء المقابلة لها فى مسرحية "علشان خاطر عيونك" لترى هل أضافت تكنولوجيا وإمكانيات المـسرح إلـى عمق الوعى ما يتناسب مع التقدم، أم أن التكنولوجيا قد طغت على المعلومات الرائعة البـسيطة التـى يمكن أن تصل المشاهد عبر الفن الأصيل).

إن ما يصل المشاهد من خلال مسرحية السكرتير الفنى للشخص العادى هو تثقيف علمى رائع يـصله عبر أسلس المسارات، فهو يقدم فكرة الإيمان بالحقائق العلمية ولو أدى ذلك إلى قطع العيش أو الجوع، وهو يقدم فكرة عدم تعارض إنسانية الإنسان ورقيق عواطفه مع تدينه

وهذا المثل البسيط والمحدد هو ما أتصوره نموذجا لإمكانيـــة توظيــف الفنـــون عامـــة، والمـــسرح والمسلسلات خاصة، فى الإسهام فى تنمية الفكر النقدى والمعرفة الموضوعية.

ثم نقفز فجأة لنقرأ معا فى ظاهرة ما يسمى جنون البقر، نقرأها كما حلت بنا عشوائيا، وكمـــا تناولهـــا الإعلام، ثم نقرأها علميا وسط الناس (الثقافة العلمية)

تقول المعلومة الـــظاهرة إن ثمة مرضا خطيرا يصيب البقر الذى يتغذى – للتسمين – بغذاء حيـــوانى معين، وأن هذا المرض قد ينتقل إلى الإنسان، ويصاب الناس بالرعـــب وهـــم يتـــابعون أخبـــار هـــذه المعلومة، رغم ندرة المصابين وعدم ثبوت العلاقة السببية بشكل قاطع، ويتوقفون عن شـــراء اللحـــوم المستوردة والمصنعة، وترهق ميزانيتهم أكثر، وهى ليست ناقصة...إلخ، فماهى واجبات العلمـــاء، ثـــم الإعلام العلمى ثم الثقافة العلمية إزاء كل هذا ؟

أما العلماء فواجبهم أن يوضحوا حجم الحقائق، وطبيعة المرض، وعدد المصابين، وفـــرص انتقـــال المرض، وأعراض المرض عند البقر وعند البشر، وكيفية الوقاية وكيفية العلاج إن وجد.

أما الإعلام العلمى فعليه أن يأخذ كلام العلماء فيقدمه أكثر وضوحا، وأن يقلب حقائق الوقاية إلى جمل مفيدة يمكن تنفيذها، وأن ينبه المسئولين عن أى ملاحظات متعلقة، وأن يخفف من رعب النـــاس غيـــر المبرر بالقدرالذى يضع فيه المعلومات أمامهم فى حجمها الموضوعى.

أما مهمة الثقافة العلمية فهى أن تنتهز الفرصة لتوضيح أخطاء العلم الجزئي، فحين يركز العلماء على الزيادة الكمـــية فى تسمين البقر حتى يخالفوا الطبيعة البيولوجية فيقلبون حيوانا آكلا للخضروات، إلـــى فصيلة أكلة اللحوم لمجرد الحصول على وزن أثقل فى مدة أقل ليكسبوا أكثر، كل هذا موقف أخلاقـــي، ومذهبى، ودينى وتربوى مرتبط بالظاهرة، ويحتاج إلى رؤية نقدية لسوء استعمال المعلومـــات العلميـــة بشكل جزئى للحصول على المكاسب المادية السريعة

كذلك يمكن للثقافة العلمية أن تنتهز الفرصة لإرساء قواعد تعنى باحترام قـــوانين الطبيعـــة، وتقـــيس القوانين الوضعية بمقاييس أخلاقية طبيعية أعمق، وقد يكون مناسبا أن يتبين الناس مـــن خـــلال هـــذه المعلومة الفرق بين الفطرة – قوانين الطبيعة–، وبين البدائية (الطبيعـــة الغـــــــفل)، وأن تتعمـــــق مسئولية تقنين الطبيعة باكتشاف قوانينها الداخلية وتطويرها فى اتجاهها، بدلا من فرض قوانين تعـــسفية ضد قواعدها، الأمرالذى ينبغى أن ننتبه إليه أساسا ونحن نلعب فى ملعب الهندسة الوراثية.

وأخيرا فإن الثقافة العلمية يمكن أن تنتهز هذه المناسبة لتعلمنا كيف نقـــرأ الأرقـــام (العلميـــة)ناقـــدين موضوعيين، بحيث لا يترتب عن الرعب من ظاهرة ما – مهما كانت علمية– إعاقة أكبر وربما أخطر من أصل الخطر. كذلك نتعلم معانى الصدفة والوقاية ومسئولية العلماء وأصحاب المصلحة وعلاقة كل ذلك بعضه ببعض

خلاصة القول: إن الثقافة العلمية هى النقلة الواعية التى تحيط بالمعلومات لتدخلها فى كل الوجــود البشرى حالة كونه واعيا مسئولا، ليس بمعنى الإرادة المعقلنة الظاهرة، وإنما نتيجــة لتمثــل هــذه المنظومة الثقافية بشكل يعيد فيها الإنسان ترتيب المعلومات، أى يعيد خلقها، أى يبدعها إبداعا.

فما علاقة الثقافة العلمية بالإبداع ؟

هذا هو موضوعنا القادم.

الثقافة العلمية

وإبداع الشخص العادى!!

(مرونة التفكير النقدى فى الحياة اليومية)٧

والآن حان وقت تقديم مفهوم للإبداع يهم ويصف الشخص العادى حالة كونه يتشكل ويشكل وعيه ويشارك فى تشكيل وعى الآخرين، ولا بد أن نميز ابتداء بين ما أعنيه هنا بالإبداع **العادى واليومى** وبين إفراز **الناتج الإبداعى الفائق**، بنفس الطريقة التى حاولنا فيها أن نثبت أن االمنتمى إلى الثقافة العلمية ليس هو العالم منتج مفردات العلم، وإنما يشارك فى التثقيف العلمى أى عقل بشرى يقظ ناقد يستطيع أن يتناول أمور الحياة من خلال التفكير الفرضى القابل للمراجعة والتعديل من واقع موضوعى، و هذا هو المنطلق الذى دعونا من خلاله إلى تناول المعلومات العلمية ليس باعتبارها أصناما، ولكن لاستعمالها فى تشكيل الوعى الخاص والعام بشكل متجدد ومتميز فيما أسميته **إبداع الشخص العادى.**

وفى هذا نقول:

كلما ذكرت مسألة الإبداع قفزت إلى السطح أسماء ديستويفسكى وأينشتين ونجيب محفوظ وجميل شفيق وجميس جويس وصلاح جاهين، وعشرات بل مئات من قادة الفكر والعلم والفن والتشكيل، حسنا، ولكن هل هذا هو كل الإبداع؟ وهل يختص صفوة من الناس أن يكونوا هم المبدعين وأن يتولوا عن سائر الناس مهمة الدهشة والتجديد والمراجعة وكأنهم يقدمون وجبات جاهزة لبقية البشر تحمل لهم احتياجاتهم من الجديد والجميل؟

أن الأمر ليس هكذا تماما، بل إنه ليس هكذا أصلا، ذلك أنه حتى المبدع من الصفوة لا يكتب إلى الناس باعتبارهم أوان فارغة تحتاج إلى الملء، وإنما يكتب المبدع أو يشكل أو يكتشف نظرية أو يمسرح لناس يشاركونه عملية الإبداع بإعادة إبداع ما كتب، من خلال التلقى المتــمـــــيز لكل على حدة وحتى ونحن نحترم حقيقة أن المبدعين هم الصفوة القليلة، وأن حضارة أمة وإسهامها فى المسيرة

---

7 - الأهرام: ١٢ / ٧ / ١٩٩٦

البشرية إنما تقاس بعدد مبدعيها من هؤلاء الصفوة، فإن هذا العدد يزيد حتما **بزيادة القاعدة العريضة من المبدعين** عامة، أى من المبدعين العاديين، المبدعين الغفل، وهكذا، (تماما مثلما تكون قوة الفريق القومى لكرة القدم مرتبطة بعدد عشرات أو مئات الألوف الذين يمارسون كرة القدم فى المدارس والساحات والشوارع والنوادى الصغيرة)

ولكن ما علاقة كل هذا بالثقافة العلمية ؟ وماهو المبرر لإقحام موضوع الإبداع فى مسألة الوعى الثقافى مشكــلا بأبجدية علمية؟

وللإجابة على هذا السؤال يجدر بنا أن نسترجع بعض ما جاء فى المقالات الأربع السالفة.

فبما أن مهمة الثقافة العلمية الأولى ليست هى الترويج للحصول على كم متزايد من المعلومات ليتم تخزينها فى عقول أكبر عدد من الناس، وإنما يقع اهتمامها الأول (وربما الأخير) فى التأكيد على منهج تناول المعلومات، وهو المنهج العلمى الذى يكاد أن يرادف–مع الحذر–التفكير النقدى، فإن المسألة فعلا تلامس، بل تتداخل مع، بل تكاد تطابق مسألة الإبداع كما ينبغى تعريفه للقاعدة العريضة، وفى ذلك نقول:

إن الإبداع هو عملية إعادة تشكيل المعلومات الكامنة والواردة بحيث تصاغ فى تنظيم جديد يضيف إلى الوعى مايعيد صياغته ويحافظ على حيويته، وقد يخرج من هذه العملية ناتج إبداعى متميز (وهو ما أشرنا إليه من ناتج عطاء الصفوة المبدعة) أو قد يحقق استمرار طزاجة وحركية الوعى على طريق النمو والتطور الجمعى أو الفردى. وهذه العملية تحتاج لكى تتم أن نوفر للعقل البشرى العادى كلا مما يلى:

(١) الحصول على كم مناسب من المعلومات وهو ما يمكن أن يسمى أبجدية الإبداع ثم

(٢) قدر مناسب من فرص الكمون للتمثل، وكذلك

(٣) مساحة رحبة للحركة والاستكشاف، وأيضا

(٤) مرونة كافية تسمح بإعادة التشكيل، وأخيرا

(٥) فرصة مناسبة للتعبير والتحقق: سواء كان ذلك فى صورة ناتج إبداعى أو نوع متجدد من الحياة، أو نظرة نقدية فى مجالات الإدراك والسلوك.

والثقافة العلمية إذ تتيح للعقل البشرى فرصة تنمية قدراته النقدية، وتخلصه من الجمود وعبادة الأوثان بما فى ذلك وثن المعلومات الثابتة والجامدة والمطلقة، إنما تتيح للعقل البشرى فرص الحركية والمرونة والمساحة والطلاقة، [من (٢) إلى (٥)..]، فإذا أضفنا إلى ذلك (١) أى ضرورة توفير القدر المناسب من المعارف المتاحة، والتى هى بمثابة الأبجدية اللازمة لحركية الإبداع، فإنها (الثقافة العلمية) تكون قد أسهمت بما ينبغى فى تحريك العقل البشرى فيما خلق له ومايصلح به.

فإذا عدنا إلى مظاهر ومجالات الإبداع الذى يهيئه إرساء قواعد التفكير النقدى، ووفرة أبجدية المعرفة، وحركية التشكيل، ثم توسيع الساحة وإطلاق البسط لوجب علينا أن نعددها للشخص العادى **بشكل يسمح له أن يعد نفسه مبدعا حتى لو لم يدرج فى قائمة مسماة بالمبدعين،** وإليكم بعض ذلك:

١- نبدأ بما يمكن أن يعرف به الإنسان بأنه الكائن المبدع رغم أنفه، وذلك **من خلال نشاط الحلم،** فوظيفة الحلم الأساسية لم تعد قاصرة على تحقيق الأمانى أو حراسة النوم، أو التنبؤ، إن كانت كذلك أصلا وإنما يحلم كل منا ربع ساعات نومه (ساعتين فى المتوسط) سواء حكى الحلم أم لم يحكه، سواء تذكره أم لم يتذكره، ويقوم هذا النشاط الحالم بإعادة تنظيم المعلومات المدخلة أثناء النهار، والمعلومات المتبقية بلا تمثل، والمعلومات النافرة من التوجه المحورى المتكامل، يقوم بذلك حتما وعند كل إنسان، فإذا اعتبرنا ذلك هو الإبداع، وهو كذلك، فكل إنسان مبدع رغم أنفه.

ولكن لماذا إذن ندعو إلى حفز الإبداع **بالتفكير النقدى أى (أو) بالثقافة العلمية أو بغيرهما؟**

٢- إن هذا الإنسان الحالم حتما،أى المبدع بالضرورة ساعتين، يوميا، يمكن أن يمحو ناتج إبداعه أولا بأول بأن **ينسى حلمه أصلا، أو يزيفه، أو يفسره بما ليس هو، أو ينكره، أو يتخلص من أثاره، كل ذلك فور يقظته أو قبل يقظته مباشرة** (وهنا يحكى المرء أنه لا يحلم، أو أنه لا يتذكر أحلامه، أو هو يحكى ما لم يحلم به وكأنه الحلم..إلخ)

٣- إذن يجب أن توجد وسيلة لعبور هذه المقاومة الجاهزة التى تتنكر لنشاط الحلم، وهذه الوسيلة هى فى طريقة التربية، وطريقة التثقيف، ونوع النظر، وممارسة النقد

٤- إن الإنسان الذى ينجح فى **السماح لمستويات عقله،** ومحتوى معارفه، أن تتحرك قريبا من وعيه بدرجة تتيح له قدرا ولو يسيرا من التغير النوعى (مثل إعادة النظر أو تجديد طزاجة الإدراك) هو الإنسان المبدع، وبالتالى هو الإنسان الذى يستعمل العقل الناقد والمراجع فى إعادة تشكيل ذاته، وواقعه، ومدركاته بما يحقق استمرار تقدمه ومواصلة نمائه ونماء مجتمعه وناسه

وإنما تقاس القدرة على الإبداع فى **الفعل اليومى** بمساحة مدى كل مما يلى:

(١) القدرة على إعادة النظر فى ما استقرت عليه الأمور (ولو مجرد إعادة النظر دون تغيير)

(ب) إمكانية تجدد نوع (طعم)إدراك الطبيعة المحيطة من ناس وأشياء

(جـ) الحفاظ على قدر مناسب من الدهشة حتى بالنسبة للأفكار والمعلومات القديمة

(ء) تحمل تذكر الحلم بعد اليقظة مباشرة، ولو بتحوير مناسب

(هـ) القدرة على عمل علاقة مع مجهول من الناس والأشياء لم يسبق له معرفته

(و) القدرة على قراءة الصحف اليومية (المعادة) وكأنها تحوى جديدا يستأهل

(ز) القدرة على تجديد علاقة الإنسان بالدين، وبالشعائر، من حيث طعمها وتوظيفها، وليس بالضرورة من حيث رتابتها وإلزامها

(حــ) القدرة على التراجع المدروس عن آراء ومعلومات كانت تبدو مقدسة

(ك) القدرة على استيعاب استعمال أدوات جديدة لأغراض قديمة (مثل استعمال الكمبيوتر الشخصى، بما فى ذلك شبكات الاتصال أو استعمال مستحدثات أدوات الزراعة، أو تعديلات التصنيع... الخ)

(ل) القدرة على تحمل الاختلاف، مع الحفاظ على قدر حقيقى من احترام الخصم المخالف واحتمال الاستفادة منه

وأحسب أن فى ذلك ما يكفى من أمثلة على ما أسميته إبداع الشخص العادى، لكن يخيل إلى أن الوصلة مازالت ناقصة بين ما هو ثقافة علمية وما هو قدرة على الإبداع بما أشعر معه بضرورة الحاجة إلى تعقيب ختامى ولو بدا تكرارا كما يلى:

لما كانت الثقافة العلمية أساسا هى الإسهام فى تشكيل الوعى المعاصر بما يتناسب مع المنهج العلمى المرن دون المنهج التسليمى المتصلب، فإن تحقيق هذه المرونة مع استعمال أبجدية المعارف الموضوعية لابد وأن يسمح **بتكوين قاعدة عريضة من العقول النشطة الحركية القادرة على التشكيل المتجدد،** أكثر من تكوين عقول لامعة تحتوى معلومات مصقولة تكاد تصبح مقدسة من خلال الثبات والجمود **وبالتالى يصبح من يتحلى بالثقافة العلمية هو القادرعلى استعمال عقله بطريقة موضوعية (أى علمية دون نفى الذات) تسمح له بالحوار فى مرونة.**

والمرأة لديها الفرصة الحقيقية لتوسيع القاعدة العريضة لإبداع الفرد العادى الذى قد يحتاج أن يفرز منه مبدعون متميزيون لا يحلّوا محل القاعدة العريضة وإنما يوسعونها.

والأمل المعقود على النجاح فى هذه المهمة هو أن تقترب الفئات المتناحرة بعضها من بعض، لا بواسطة التلفيق والاتفاقات التقسيمية، وإنما بفضل التفكير العلمى على الجانبين، فتتسع ساحة العالـــــم القح لمصادر معارف أخرى موازية ومساعدة ومتكاملة، وتتكون مسام فى جدار المتعصب الأيديولوجى (دينيا أو غير ذلك) تسمح بنفاذ الضوء والهواء إلى طبقات وعيه، فيستعيد عقله المرونة والسماح، ثم ينهض للإسهام فى مسيرة المعرفة وتكوين الوعى الحضارى المناسب الذى نحن أهل له، بشهاة التاريخ ومن واقع بشائرالمثابرة والعناد وقبول التحدى.

حين يصبح العلم خلقا

وضميرا حياً[8]

---

8 - الأهرام: ١٩/ ٧ / ١٩٩٦

بعد انتهائى من كتابة سلسلة هذه المقالات مجتهدا مدعيا البساطة قاصدا الوضوح، رحت أقرأها مع القاريء متقمصا إياه، فاستبنت نقصا ما، ثم تبينت أن البعد الذى ينبغى إضافته هو ما يمكن ترجمته إلى أمثلة محددة فى الفعل اليومى، أى أن الثقافة العلمية تنجح فى مهمتها حين يصبح تواجدنا (أو تواجد أغلبنا) فى هذه الحياة، فى هذا الوقت من الزمان، متسقا مع ما هو علم بالمعنى الأشمل، فنجد أننا نتناول الأمور من منطلق "التفكير النقدى، والحوار المرن، وإمكانية المراجعة أو التراجع" وأننا نبتعد ما أمكن عن نقيض ذلك، أى عن الجمود الثابت، والخطاب الأحادى، وتقديس المعلومة، واختزال الوجود.

وكيف يكون ذلك؟

قلنا إنه لا يكون الواحد منا مشاركا فى نشر الثقافة العلمية بقدر ما يزيد معلوماتنا، أو يغمرنا بأبحاثه وأرقامه، فهذا هو العالم أو المعلم الأكاديمى القح، وإنما المساهم فى نشاط الثقافة العلمية هو الذى همه أن يجعلنا نصدر فيما نصدر عن ما هو منهج علمى فى التفكير، بصورة تلقائية كأنه أمر بديهى، أو كأنه سمة من سمات الحياة الطبيعية، أى صفة لاتكتمل الصيغة البشرية إلا بها.

ثم إننى وجدت نفسى أتحدث عن العلم فى منطقة الطباع البشرية (الخلق والأخلاق) وهارمونية الوجود (الجمال وتناسق الوعى)، فتساءلت: ما هى الحكاية؟ **هل الثقافة العلمية هو أن يصبح العلم خلقا تلقائيا للأفراد فى حياتهم اليومية؟** وإذ بى أجيب: نعم" فألاحق نفسى: وكيف يكون ذلك؟

إنما يكون العلم خلقا لا قشرة خارجية، ولا أداة رفاهية، ولا تفاخر موسوعى إذا تغلغل فى وجودنا، منذ الطفولة بطريقة سلسة ومتصاعدة حتى يصدر سلوكنا مصطبغا بقوانينه دون أن ندرى.

وكيف يكون ذلك فعلا؟ (مرة أخرى)

دعونا نتذكر أولا أن العلم هو أكبر بكثير مما يتصوره الشخص العادى، بل ربما يكون أكبر أيضا مما يتصوره العالم المتخصص نفسه، وهو كذلك أكبر من المعلومات التى يحتويها تحت إسم مختلف العلوم، وكذ لك دعونا نتذكر **أن العلم هو موقف فى الحياة، وهو طريقة فى التفكير ومنهج تعامل، وعملية كشف وراءها كشف، فمراجعة، فحوار فمراجعة وكشف، وهكذا بلا نهاية.**

ثم لعلنا نتذكر أيضا ما سبق الإشارة إليه عن علاقة العلم بالوعى (مما ذكرنا طوال سلسلة المقالات) وبالجمال (وضربنا لذلك مثلا من جماليات العمارة)، ولكن ما علاقة كل ذلك بالخلق (والأخلاق)؟

إن الثقافة – كما أسلفنا – هى شبكة الوجود المتغلغل فى لحم الحياة لمجموعة من البشر بحيث تسمح وتساعد أن يتصف كل (أو أغلب) أفراد هذه المجموعة بما تتميز به هذه الثقافة.

فإذا كانت هذه الشبكة مصنوعة بطريقة علمية، وكان نسيجها من موضوعية المعرفة المرنـــة بحيـــث تحقق التناسق والحركة والنقد والمراجعة، فإن ما ينشأ منها ويعيش فى رحابها لابد وأن يتصف ببعض ذلك أو كله،

ولعل العلميين القح يتوقفون هنا قليلا أو كثيرا، يحتجون منبهين أننا نجمع كل المعارف والمنظومـــات فى سلة واحدة نسميها ثقافة علمية"، وقد يكون هذا صحيحا لأن فصل الأخلاق والجمال والوعى عـــن ماهو علم كان قد تم فى ظروف تاريخية حين راحوا يوزعون "تركة الفلسفة"، أما وقد تم ويـــتم إحيـــاء الفلسفة فعلا يوميا، فإننا بسبيل إعادة الإسهام فى "تصنيع الثقافة بإرادة بشرية موضوعية "وهـــذا هـــو المنطلق الذى دعانا إلى تعميق التوصيه نحو هذا التكامل الضام باسم الثقافة العلمية.

فكيف يكون العلم خلقا فى نسق هذا التوجه التكاملي؟

نعرف الأخلاق أولا تعريفا انتقائيا يناسب موقفنا الراهن، لأن ذلك سوف يفيدنا فى تجنب الدخول فـــى إشكالية الاختلاف حول ماهية الخلق والأخلاق فنقول:

" إن الخلق (الأخلاق) هى جماع السلوك والمواقف التى تحدد العلاقات بين الإنسان ونفـــسه، وبـــين الانسان وغيره، وبين الانسان وما بعده، وبين الإنسان وربه"، وحين يكون هذا الخلق متسقا (هارمونيا) ومتصاعدا وممتدا ونابضا وفاعلا، توصف مثل هذه الأخلاق بأنها حسنة أو إيجابية، وحين يكون هـــذا الجماع زائفا أو ناقصا أو نشازا أو متعسفا أو ضارا أو معطلا، توصف هذه الأخلاق بأنهـــا ســـلبية أو سيئة، وهذا التعريف يربط بين الأخلاق وبين هارمونية الجمال وتناسق مستويات الوعى مـــن ناحيـــة، كما يربط بينها وبين مصداقية العلم الموضوعى من ناحية أخري.

وعلينا إذن – ليكون العلم خلقا طبيعيا – أن ننشيء الإنسان طفلا فيافعا فشابا فشيخا بطريقـــة تحـــافظ على ترتيب أفكاره، وتجعل عقله دائما نشطا ناقدا، لا يسلم ولا يستسلم لأى من كـــان دون استيـــضاح ونقد، ولا يقحم على وعيه مالا يتفق مع فطرتة (القوانين الطبيعية) ولا يشوه سلامة فكـــره باســـترخاء التلقى، وبألفاظ أخري: إن العلم يكون خلقا حين يصقل الجهاز البشرى كله بحيث يخرج منه أحسن مـــا تعد به قوانينه متكاملة بحيث يصبح وجدانا إيجابيا نابعا من موضوعية العلم، وهكذا، نجـــد أن الـــشعر كذلك هو من دعائم هذا الخلق العلمى، فلننصت إلى شارل بودلير وهو يصف خيال الشاعر بأنه "أشـــد المواهب علمية، لأنه وحده الذى يفهم التجانس الكوني".

نعم، يكون العلم خلقا حين يصبح ضميرا للفرد وضميرا اللأمة، ضميرا يحول دون أن يـــسلم الفـــرد العادى مقود فكره لغير ضميره العلمى الموضوعى، كما يحول دون العالم أن يستسلم لما لا يتفق مـــع صالح الناس وسلامة الفطرة، لدرجة أن يؤرقهما ذلك فلا ينام أى منهما حتى لو كانت حـــصيلة يومـــه طنا من المعلومات المجردة أو النصوص البراقة.

الأمثلة:

ثم لابد من أمثلة توضيحية، ونبدأ بما ليس كذلك، بما ليس علما خلقا شاملا إيجابيا:

مثال (أ) غالت بعض النظم المادية (العلمية) فى تقديس معلومات مرحلية، وراحت تقيس بها كل شيء حتى الحق والجمال والإيمان، فنتج عن ذلك اختزال الإنسان إلى ماليس هو فانهارت تلك الأنظمة. (المثال: روسيا الستالينية).

مثال (ب) اختزلت أنظمة أخرى شكل الحياة إلى نمط مرتبط بظاهر الألفاظ ومنطوق القوانين والتعليمات دون جوهر التكامل وحساب البصيرة فغطت الإنسان بقشرة من الأخلاق الدينية كما تصورتها، فانفصلت القشرة عن الفطرة فتشققت، رغم الأسماء الدينية ثم راح مجتهدون يحاولون إخفاء الشقوق بأن يلصقوا عليها محسنات بديعية لها أسماء علمية، فكان أن شوهت الانسان مرتين: الأولى بالاكتفاء باللفظ والتاريخ عن الابداع والتجربة الحية، والثانية بتسمية الأشياء بغير أسمائها حتى اختلطت الأوراق (باظت اللعبة) (الأمثلة أكثر من أن تحصى).

ثم أنتقل إلى أمثلة إيجابية للعلم الحق حالة كونه خلقا إيجابيا وضميرا حيا وأتعمد قصدا ندرة استعمال الأبجدية العلمية المتعارف عليها فى هذه الأمثلة (أليست المسألة مسألة ضمير وأخلاق؟).

(١) طفل عمره ٧ سنوات تعلم فى سنة أولى ابتدائى أننا كائنات حية، وأن الفرخة كائن حى فتساءل لم نقتل (نذبح) الفراخ لنأكلها، ألانخاف أن يذبحونا نحن ايضا ليأكلنا من هو أقوي؟ ثم استطرد: متى نستطيع أن نذبح الأسد ونأكله، لأنه هو الذى يستأهل، لانه يتربص بنا ليفعلها؟ (حدث هذا فعلا فى حوار مع "عمر" حفيدى).

(٢) طفل (أكبر قليلا) على يقين من عدل الله سبحانه وتعالى، قرر أن صديقه ميشيل (إبن "طنط" مارى) سوف يكون معه فى الآخرة فى نفس المكان، لأن الله العادل والرحيم لن يقبل أن يفرقهما، وهو -شخصيا - لا يتحمل أن يرى أو يسمع أن صديقه ميشو يتألم "هناك".

٣ - شاب أكبر من الطفلين السابقين، لا يستطيع أن يحفظ مقررات التاريخ، لأن المنطق السليم وضميره العلمى يشككانه فى أن الأحداث قد حدثت "هكذا بالضبط"، لكنه يحفظ مقرر التاريخ فى النهاية على أنه "محفوظات" وليس على أنها تاريخ؟ (من أجل خاطر عيون الامتحان).

٤ - قاض أكبر من الشاب - طبعا - عاودته آلام الذبحة الصدرية حين اصطدم بنص قانون واعترافات لم يسعفه أيهما فى تبرئه متهم هو على يقين - من واقع أخلاقه العلمية وضميره العلمي- أن هذا المحكوم عليه بريء لكنه لم يستطع فعل شيء أمام النص، فيقرر القاضى أن يرشح نفسه لمجلس الشعب لتغيير القانون، وهو يعلم أنه لن يكسب الانتخابات، وأن الذبحة الصدرية قد تقضى عليه أثناء الدعاية، وحين يفشل.

٥ – باحث فى مركز علمى – فى مثل سن القاضى – أصيب بهم وغـم شـديدن حـين رأى بحثـه منشورا باسمه وهو على يقين من أن المنهج محكم والشروط مستوفاة، والإحصاء سليم، لكنه يعلم مـن واقع خلقة وضميره العلمى أن كل هذا – لايعنى شيئا مفيدا، وقد يضر.

٦ – رئيس دولة يعلن عزمه على الاستقاله رغم نجاح حزبه فى الانتخابات، فهو على يقين – بالرغم من عدم التزوير – أن هؤلاء الناجحين لايمثلون الناس حقيقة وفعلا، وهو مسئول عن الناجحين وعـن الناس معا، لكن خلقه العلمى يبصره أن هذا النوع من ديمقراطية الإنابة لم يعد يصلح للعصر الحـالى، ثم هو يعدل عن الاستقالة، لعله بهذه الأغلبية الزائفة يستطيع أن يعدل الأمـر إلـى ديمقراطـة أكثـر عصرية

وبعد، فأرجو أن أكون قد نجحت فى تحريك وعى القارىء إلى ما ليس كذلك" وبالتـالى إلـى حفـز تفكيره للحوار فيقبل بعض ما عرض، ويرفض البعض الآخر، ويعدل الاثنين – ليشارك فى ما قـصد إليه هذا **المقال: حين يصبح العلم خلقا.**

الجزء الثانى

كتابات متعلقة

تشمل هذه المجموعة ما سبق نشره، مما لم يكتب أصلا لما هو" ثقافة علمية"، ولكنه يتعلق إما بالمنهج، أو بما أسميته روافد المعرفة، أو تعدد لغات المعرفة.

وقد أعدت ترتيب المواضيع عدة مرات، مرة حسب تاريخ النشر، وأخرى حسب مكان النشر، وثالثة حسب غلبة منهج بذاته، ورابعة حسب الحجم، لكننى فشلت فى كل المحاولات فجاء الترتيب "هكذا":

١- جماعات.... وجماعات (تنوير أم إبداع؟)

٢- الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين (من يخاطب من؟)

٣- فضيلة الدهشة

٤- ذكاء السؤال، والجهل المعرفى

٥- مراجعة لماهية التطرف والإرهاب (انفجارات الوعى)

٦- الطب البديل

٧- فن العولمة

٨- جوائز و جوائز

جماعات .. وجماعات[1]

إذا ذكرت كلمة جماعات دون تحديد فلا بد أن يذهب ذهنك إلى الجماعات الدينية، ثم إلى الجماعات الإسلامية بوجه خاص؟

وإذا قيل تطرف قفز الفكر إلى ما هو قتل ورصاص وتخريب وإجرام ولابد أن أذكر برأى سبق أن أبديته فى هذا الصدد، وهو أن التطرف هو الوقوف الواضح على طرف قضية بشكل غير مائع، وهذا ليس عيبا، ولكن العيب هو فى أن يتجمد هذا الوقوف عند ذاك الطرف إلى مالا نهاية، وهنا ينبغى علينا أن نصب جام غضبنا على **التعصب**، وليس على التطرف.

أما لفظ الجماعات فهو ماسأحاول أن أتفحصه لنراجعه معا فى هذا المقال:

يقول **المثل** المصرى: "**إيش رماك على المر قال الأمر منه**" وقياسا نقول: "**إيش رماك على الجماعات إياها، قال الجماعات الأخرى**".

---

1 - لم أعثر على أين نشر هذا المقال، وهناك احتمال ألا أكون قد أرسلته للنشر أصلا فهذا كثيرا ما يحدث فى زحمة الانفعال. كتب فى القاهرة فى ٢٥ / ٢ / ١٩٩٤

توجد نكتة مصرية شائعة لدرجة أننى أكاد أخجل من تكرارها حتى لا أسمع القارئ يقول "قديمة"، وعذرى فى تكرارها أننى سأستعملها فى سياق آخر:

تقول النكتة " دخل جمع مسلحون وأشهروا فى وجه أحد المصريين الطيبين من الذين لا لهم ولا عليهم، أشهروا أسلحتهم مهددين سائلين صائحين " **إنت معانا ولا مع التانيين؟** فسألهم " الشخص **(**الذى لا به ولا عليه**) فى رعب ولكن فى طيبة أيضا، من أنتم؟ ومن التانيين؟**، فلم يردوا وكرروا السؤال بتهديد أخطر، "إنت معانا ولا مع التانيين، إنطق"، وحين ألحوا دون تفاهم، أجاب بالرد الأسلم، قائلا " أنا معاكم" فأطلقوا عليه النار وهم يقولون: "إحنا التانيين"!!

قلت إننى سأكرر هذه النكتة لأوضح كيف أن المواطن المصرى الطيب " (الذى لا به ولا عليه**)** لم يعد يستطيع التفرقة بين الفريقين ناهيك عن حيرته أمام أفعال تبدو بلا غاية سواء من هؤلاء أو من أولئك، وأن المتصارعين، يكادان يتشابهان، والإثنين يريدان منه أن يختار بينهما دون وضوح ولا تمييز، وأيا كان اختياره، فهو الضحية لأن القضية أصلا لا ترتبط باختياره.

فماذا عن تعريف لفظ الجماعات أصلا الذى يجمع هؤلاء إلى أولئك؟

إنه لفظ يشير إلى كل جماعة أو جماعات التفت حول عقيدة مغلقة، أومذهب جامد، أو منهج مختزل مكرور، فأصبح إنتماؤها للألفاظ أكثر من الممارسة، وأصبح تقديسها لطقوس المذهب وحرفيته دون مغزاه وغائيته،

وليسمح لى القارئ منذ الآن أن أسمى الجماعات الإسلامية اختصارا باسم " الجماعات" فقط، أما الجماعات العكس (الوجه الآخر**)** فسوف أسميها "التانيين" اختصارا أيضا. طبعا هناك فروق بين هؤلاء وأولئك، ولكن ليس هذا وقت تفصيلها، المهم عندى هو توضيح بعض الجمود الذى قد يصبغ أيا منها دون استثناء. فكما يعتمد التفسير للمذهب أو العقيدة على آراء منتهية ومعاجم ميتة، قد يعتمد المنهج الذى يقال له علمى– مثلا– على أرقام مرصوصة ومعادلات إحصائية عمياء.

وكما يشجب التفسيراللفظى كل ما عداه يمكن أن ينفى المنهج العلمى المختزل، (= شبه العلمى**)** إذن فالمطروح على الساحة بالنسبة للشباب خاصة، ليس هو أن يفكروا ويراجعوا فى مقابل أن يتبعوا ويطيعوا، وإنما المطروح على أغلبهم، فى وقتنا هذا، فى وطننا هذا– للأسف– هو أن يختار من يتبع: هل يتبع "الجماعات"، أم "يتبع التانيين" ؟

مرة أخرى نذكر بالمثل المصرى العامى "إيش رماك على المر، قال الأمر منه"، وقياسا يمكن أن نقول فى موضعنا هذا: "إيش رماك على تسليم عقلك لتفسيرات جامدة، والتنازل عن حقك فى التفكير قال: قوالب التفكير المستورد، وعمى المنهج الكمى"

لكن تحت هذا الإسم الجديد " التانيين" يندرج جمع من الناس مختلفوا الصفات والمواقف، ولا يحاول أحد التمييز بينهم، أو التدقيق فى الألفاظ التى وصفتهم مثل: التنويريون، والعلميون، والعالمانيون، وأظن أن استعمال هذه الألفاظ "هكذا" قد أضر بالحوار المحتمل بين الفئات المختلفة،

فدعونا نراجع ما يجرى: خذ مثلا **لفظ التنويرين**[2]: لفظ جميل واضح، وكثير من الذين ينتمون إليه فى بلدنا من أفضل المصريين وأكثرهم حركة حرة وإبداعا، لكننى حين أقرأ هذا اللفظ بهذا الإلحاح، أتصور أن الدنيا ظلام **وأن كل ما نحتاجه هو أن يـــحضر هؤلاء التنويريون كشافا من سوبر ماركت "العصر" ويضيئون به طريق هذا الشعب المسكين الذى يتخبط فى الظلام، وأتمادى فى الخيال لأقول إن كثيرا من الذين تنوروا أو نوروا قد اكتفوا بالإضاءة الباهرة دون تحديد يتناسب مع ما هو نحن، تحديد يقول: إلى أين، أو كيف،** والنتيجة أنه بعد إضاءة النور يتوقف الكثير منهم أو منا تحت بقعة النور منبهرا لا يتحرك – إذا تحرك – إلا فى محله، خشية أن ينتقل خارج حدود بقعة النور فتظلم سماؤه من جديد، فيظل: فى انتظار تنويرى آخر يوسع له البقعة أو يضيء له بقعة على الجانب الآخر، فيقفز إليها وربنا يستر.

تحضرنى حكاية من بلدنا، (ليست نكتة هذه المرة) حين ذهب "الإمام أفندي" مع زوجته الطيبة محاسن إلى القاهرة لأول مرة، ورأوا إشارة المرور تخضر وتحمر وتصفر،(والإمام أفندى كان مدرسا إلزاميا مطربشا رشيقا لم ينجب، وحين لا ينجب مثل هذا الرجل فى بلدنا، ثم يرضى هو وزوجته المتوسطة البدانة بقضاء الله، تنقلب العلاقة الزوجية فى كثير من الأحيان إلى علاقة أكثر متانة وطيبة والتصاقا) جلس الإمام أفندى وحرمه الست محاسن على الرصيف المقابل لإشارة المرور، وأخذا يرصدان تغيرات الألوان بصوت مرتفع: خضرة يا محاسن، حمرا ياسى أمام، صفرا يا محاسن، خضرا يا سى إمام وهكذا (انتهت الحكاية).

أحيانا أتصور مثل هذا المنظر عند بعض من بهرتهم أنوار العصر، فاكتفوا بإنارة أنوار الإشارة، وتغير الأنوار بين المذاهب الحمراء والخضراء والصفراء، فجلسوا على رصيف (العصر) يرصدون تغير الأنوار دون أى إشارة تدل على أنهم سوف يسيرون مع الإشارة الخضراء، يسيرون إلى أين؟

القضية تبدأ بالسؤال " سير أم توقف" فإذ كانت سيرا، فالسير إلى أين، وحتى لو عجزنا عن تحديد الهدف، فالسير فى أى اتجاه.

يسرى هذا على كثير من المتحمسين ضد الجماعات الإسلامية، بقدر ما يسرى على المسجونين داخلها، صحيح أن الفريق الأول عنده مقدسات أقل وبالتالى فرصة حركة أوسع، لكن الكثيرين لا ينتهزون هذه الفرصة بالقدر الكافى، ذلك أن الغالبية منهم "تتبع" مقدسات تكبلهم فى المحل.

---

2 - كل ما يرد هنا أو فى الكتاب كله لا يقصد التنوير بالمعنى الإيجابى المبدع، وإنما بالمعنى الدفاعى الشائع.

خذ عندك مثلا: تقديس المنهج العلمى التجريبى الكمى دون سواه، فهناك جمهرة من "التانيين" لا يحترمون المعلومات العلمية إلا ما اتفق منها مع منهج محدود من المناهج دون غيره، وكل من خالفه ليس من حقه أن "يدعى" العلم، **وهكذا يجد الشاب** أنهم لا يحترمون عقله، فهو يحمى نفسه من التسفيه بأن يحيط عقله بتفسيرات دينيه ثابتة حيث قداستها فى حبكتها وليس فى حركيتها.

فما دام عقل الشاب لا يجد من يسمع له ويسمح له، فهو يختار أن يكف عن الاستماع بمحض إرادته مكتفيا بإذاعة القرآن الكريم (مثلا) حتى لو يكن يحسن الإنصات، حتى لو لم يحمل الأمانة بتكريم عقله، حتى لو لم يصبح خلقه القرآن.

وما دام عقل الشاب قد فرض عليه ما يسمى المنهج العلمى التجريبى الإحصائى لظاهر الظواهر دون سواه، حتى لو خالف ذلك المنطق والبديهة والنفع واقتحام الغيب بإبداع متجدد، فهو يختار أن يهرب من هذا السجن الجديد إلى سجنه القديم الآمن.

ثم إنهم قد نفروا الشباب أكثر وأكثر بهذ الخلط اللغوى الذى نشأ نتيجة استعمال **هذه الحروف الثلاثة (عين ولام وميم)** فى وصف من أسموهم أو هم أسموا أنفسهم، أو رضوا باسم "**العالمانيين**"، ومهما قلت وأعدت، فلن تصل مع شخص عادى إلى توضيح مسألة أن الانتماء إلى العالم الدنيوى دون الأحكام الدينية المغلقة ليس له علاقة بما هو علم أو عالم، إذن لن تستطيع أن توصل إليه ما تريد، لأن ما يتبقى فى إدراكه هو ترادف كلمة علمانيين مع علماء وعلميين دون أى ألف تفصل العين عن اللام أو تفتح اللام لا تسكنها. وهكذ تم طرد شبابنا الطيب – دون قصد سيء بالضروة – من كل ما هو علم فوجد نفسه دون اختيار مع الجماعات، دون "التانيين".

ثم تأتى جمهرة من المتدينين الطيبين حسنى النية (أيضا)، يندس بينهم عدد من المنتفعين السطحيين، يحاولون فض الاشتباك بين الجماعات "والتانيين"، فإذا بهم يسيئون إلى الاثنين بلا بديل، وأعنى بهذا الفريق المختلط **من يحاولون تفسير الدين بالعلم، أو استخراج المعلومات العلمية** من الدين، ولن أناقش هذا الموضوع فى ذاته – فقد تناولته فى أكثر من موضع آخر– لكننى أوضح هنا أن هذه المحاولات التلفيقية – لا الاستلهامية– تفيد فى النهاية فى تثبيت المنظومتين معا، ثابت يدعم ثابتا، **مع أن العلم إذا ثبت وأغلق فقد خاصيته العلمية، ومع أن الدين إذا سكن وتمسح فى ثابت، فقد ريادته الإلهامية** فماذا يفعل الشاب – مرة ثانية – أمام كل هذا؟

هل يقبع داخل قفص قضبانه من ألفاظ نص تفسيرات دينية منتهية أم يقفز إلى الناحية الأخرى فيجد نفسه مختنقا فى مصيدة منهج مغلق مختزل أم يأخذ المصيدة (المنهج العلمى المختزل) ويضعها فى داخل القفص(التسطيح الدينى الجامد) ويرتاح؟

لا يوجد حل – سيداتى وسادتى– إلا فى التمسك بالمنهج العلمى المبدع المقتحم المغامر المسئول دون شطح أو انفرادية

لا يوجد مقدس إلا الفطرة السليمة، والتقديس هنا لا يعنى التثبيت وعدم الاقتراب، بل يعنى احترام القوانين الطبيعية وتطويرها والفطرة ليست هى البدائية الغفل، وإنما هى الحقيقة الحية المتطورة بقوانينها التى أنزلها خالقها، وأول هذه القوانين حق الإبداع لخير الناس، وهذه القوانين ستجعل من الجماعات مبدعين يستلهمون من النص ما يعمق فطرتهم وينقى وجودهم ويوجه إبداعهم، فيخرجون من قفص الجماعات

ونفس قوانين الحياة هى الجديرة بأن تفتح باب المنهج العلمى على مصراعيه ليدخل ضمنه كل متحرك مفيد فطرى متنام إن الصراع ليس بين العلم والدين وهو ليس بين الجماعات والتانيين ولكنه بين جامد ومتحرك على الجانبين.

الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين

مَنْ يخاطب من؟

استجابة لدعوة الأهرام الغراء للمثقفين أن يدلوا بدلوهم، أو بتعبير أدق أن يتحملوا مسئوليتهم، فيما سمى مؤخرا بالإرهاب أحيانا والتطرف أحيانا أخرى طالعنا ما يقترب من الستين مقالا ورأيا ودراسة، وقد حاولت أن أتتبع هذا الجهد الأمين الذى أفرزته مجموعة من أرقى وأنقى عقول هذه الأمة، و نفعنى ذلك نفعا مناسبا، لكننى فجأة هاجمتنى عدة أسئلة اكتشفت أن الإجابة على بعضها هى السبب الذى حال دون إسهامى فى المشاركة –حتى الآن– فى تحمل المسئولية بإبداء الرأي.

وفى محاولة لاكتشاف ذلك رحت ألامس مفاتيح الحاسوب (زمان كنا نقول: رحت أمسك بالقلم) لعل الأمور تتضح أمامى مثلما تتضح أمام من يشاركنى بعض هذا.

وكأمثلة لبعض تلك التساؤلات المزعجة أطرح ما يلى:

من يكلم من؟

من هو المثقف الذى يكتب هذا هنا؟

ولمن يوجه الخطاب أصلا ؟

و هل اجتهدنا فى تعريف ظاهرة التطرف أساسا قبل أن نخوض فى رفضها هكذا على الإطلاق؟

والأسئلة لا تنتهي، وكل إجابة أو محاولة إجابة تولد أسئلة بدورها، مما يستدعى أن نتناول بعضها مباشرة **كأمثلة** لا أكثر.

أما عن المثقف فيبدو أن الأمر قد اقتصر –كما هى العادة– على أن نرادف بين المثقف والمتعلم، أو حتى المتفقه، (وهو من يسمى حديثا الأكاديمي) فهل هذا هو المقصود؟

وكيف نرى الفلاح الأمى الذى يستشهد بالمثل العامى القائل: **قالوا لفروعــون إيــش فرعنــك قــال مالقتش حد يردنى**، أو نرى المعزى (الجاهل) فى أقصى الصعيد وهو يهز رأسه مستمعا للآية الكريمة 'فاستخف قومه فأطاعوه'، هل نرى مثل هذا الفلاح أو ذلك المعزى مثقفا أم نضعه خارج دائرة الحوار؟

فإذا تجاوزنا عن بعض ذلك، وارتضينا أن تكون هذه السلسلة من المقالات هى إشارات مــن عقــول منظمة تشير فى تواضعمسئول إلى بعض الأمور التى تتوجه بها إلى من يهمه الأمر، من هــذا الــذى يهمه الأمر؟

فالسؤال الذى ألح على قبل غيره يقول:

لمن يوجه كتاب هذه المقالات الخطاب؟

لا أحسب أن المثقف (بمعنى المتعلم المعقلن، أو الأكاديمى المتفقه) يوجه خطابه إلى زميل مثله علــى صفحات صحيفة يومية، فهذا ليس المكان ولا المقام الذى يحاور المثقفون بعضهم بعضا فــى ســاحته، ولا أعتقد أن هذه هى مهمة هذه الدعوة الكريمة.

فالأرجح –إذن– أن هذه المقالات ليست جدلا بين مثقف ومثقف آخر يوافقه أو يعارضه، وإن كان هذا واردا من حيث المبدأ، إلا أننى افتقدته إلا قليلا.

فهل يا ترى يوجهون خطابهم إلى المتهم شخصيا؟ (المسمى الإرهابى أو المتطرف)؟

لا أظن أن هذا محتمل أصلا، فالإرهابى المتطرف قد وصل إلى درجة من اليقين أغلقت عليه أبــسط وأرجح ما يمكن أن يصل إلى أى خلية حية، لأنها أغلقت عليه حتى رحمة ربنا المباشــرة والحتميــة: الواردة مثلا فى كل بسملة واستغفار ' بسم الله الرحمن الرحيم – يا أرحم الراحمين ارحمنا !!' فكيــف يتصورمثقف– مهما أوتى من فقه أكاديمي– أنه قادر على ماعجز اسم الله الرحيم أن يوصله إلى قلوب عليها أقفالها.

إذن فالمتطرفون ليسوا هم المعنيين بالخطاب.

فهل ياترى يوجه المثقفون الخطاب إلى السلطة لتستهدى برأيهم فى تخطيطها لتحمل مسئوليتها؟

إننى لا أكاد أتصور أن السلطة تأخذ هذه الآراء مأخذ الجد، فالسلطة (بكل أنواعها: سياسية وإداريــة وبوليسية ودينية) إما أنها تريد حلولا عملية وفورية يمكن أن تطبقها الآن وغدا، ومجــرد 'الكلمــات' لا تقوم بمثل ذلك ولا تعد بما هو قريب من ذلك.، وإما أنها لا تلتفت أصلا إلى هذه الكلمات.

لم يبق أمامى أمل إلا أن تكون **هذه الكلمات/ المقالات موجهة لمن هم فى مفترق الطرق**، أو لمن هم مسئولون عمن هم فى مفترق الطرق من مربين وآباء وأهل دين وأطباء وإنسانيين، أى **إلى أى مواطن إيجابى يرى أنه يستطيع أن يسهم فى هذه المسيرة بأى قدر من الإيجابية.**

وهذا المقال الآن محاولة للحركة فى هذه المنطقة: **مفترق الطرق.**

وعلى هذا فقد وجدت نفسى مضطرا إلى البداية من البداية بتعريف للألفاظ بالقدر الذى أتصور أنه قد يمنع الالتباسات الشائعة التى غمرتنى طوال المتابعة.

ونبدأ بمحاولة تحديد من **هو المثقف**؟ فعندى أن **الثقافة** لا ترتبط بموسوعية معرفة أو بحصافة عقلنة، **وإنما هى جماع العوامل المحيطة التى يتكون بها وعى الناس فى حقبة بذاتها فى موقـــع مـــن أرض الله بمميزاته الخاصة وتاريخه الماثل فى حاضره الآن الحامل لتوجهات المستقبل.**

وبالتالى فالمثقف هو من يمثل ذلك، أى أنه المواطن الذى يعيش بدرجة مناسبة مـــن الـــوعى بحقيقـــة زمانه، فيسهم بهذا الوعى فى مسيرة نفسه وبنى جنسه، يسهم بالحركة ضد الجمـــود، بـــدءآ بـــالأدنى فالأدني.

وبالتالى فأول ما نسعى إليه –فى مواجهة مأزقنا الحالي– هو أن يزيد عدد المثقفـــين بيننـــا – بهـــذا المعني– وأن يصبح **الوعى والمشاركة** هما التعريف السليم للمثقف، ومن هذا المنطلق نرجح أن الفلاح والمعزى السالف الإشارة إليهما فى بداية المقال هما مثقفان أكثرمن هؤلاء المتحاورين على الجـــانبين: الرسمى والجماعاتي. وبقدر ما يفرز مجتمعنا مثقفين ـــ أى معايشين الآن بوعى كاف– سوف تتراجـــع مخاطر ما نسميه تطرفا وإرهابا، والعكس صحيح فبقدر ما تغلب على وعينا رسوم الكتابة، ونـــصوص الإعادة، سوف نتجمد لنندفع فى تصادم لا حل له.

ثم ننظر فى مراجعة معنى التطرف، وقد سبق لى فى السبعينات–وعلى صـــفحات الأهـــرام الغـــراء أيضا– أن رفضت هذا الترادف بين الإرهاب والتطرف، بل إننى رفضت اتهام لفظ التطرف بالـــسلبية على طول الخط، ونبهت إلى أن الإنسان، كل إنسان وخاصة الشباب يحتاج إلـــى أن يتطـــرف، حتـــى يستبين أين هو فى غاية مدى ما ذهب إليه، ومن خلال هذه الخطوة القصوى يستطيع أن يحدد موقفـــه ثم يوجه حركته، وحتى يتضح الأمر أعيد أن **التطرف هو الحركة فى اتجاه أبعد نقطـــة علـــى طـــرف 'بندول نشط'. وهى حركة ضرورية لها إيجابياتها، ولا تصبح سلبية وخطرة إلا إذا توقفت فى نهايـــة المطاف**، أى إلا إذا تجمدت عند الطرف الذى انتهت إليه الحركة، وهنا يصبح من توقف 'هناك' متجمدا أو متعصبا وهذا أفضل من تسميته متطرفا.

ولمزيد من الإيضاح: إنه لايمكن احترام التطرف إلا بتصور ضده المرفوض: فالميوعـــة، والتـــردد، والحل الوسط التسوياتي، والتلفيق، والقص واللصق: كل ذلك هو ضد التطرف، ومن يهاجم التطـــرف بلا تحفظ، قد يجد نفسه أنه يدافع (دون أن يدري) عن قيم الميوعـــة والتـــسويات الهامـــدة، والتلفيـــق، والقص، واللصق.

وكأن موقفنا ينبغى ألا يكون ضد التطرف ابتداء، وإنما ضد التعصب والجمود: التعصب والجمود فى أى موقع، سواء كان هذا الموقع فى طرف الحركة يمينا أو يسارا أم فى وسطها، سواء كان مصدره هو الجماعات أم أصحاب الإيديولوجيات الثابتة، أم أهل السلطة الشديدة الاستقرار بالعافية.

فالقضية التى ينبغى أن تثار إذن ليست هى كيف نقضى على التطرف، وإنما هى:

كيف نجعل التطرف إيجابيا؟

كيف نسمح بأن تستمر الحركة بعد الوصول إلى أقصى الطرف؟

كيف نخاف الميوعة والتسويات الغامضة والخبيثة بنفس القدر الذى نخاف به من الجمود والتعصب.؟

ولكى نحقق بعض ذلك لابد أن نؤكد على قيمتين:

الأولى: حتمية الحركة

والثانية: مسامية السماح

أولا: حتمية الحركة:

فإذا كنا نواجه ما نسميه تطرفا وهو فى الحقيقة جمود فى أقصى الطرف، إذا كنا نواجهه بجمود آخر ولكنه أقل تحديدا وأكثر ميوعة وأخفى معالما (مثلما يفعل بعض المتدينين التقليديين فى نقاشاتهم مع المتطرفين فى بعض ندوات التليفزيون وقوافل الأوقاف) فلنا أن نتصور أن الشباب سوف يختار جمودا دفاعيا على طرف واضح المعالم، يحتمى به من الميوعة والفتور، بل يحتمى به من الجمود السرى فى حضن السلطة، وكأنى بلسان حال الشباب يقول: مادامت الدعوة هى للجمود والتعصب فلأختر موقعى بنفسى، وليكن محددا حادا وصريحا بدلا من يسربوا لى جمودا رخوا مائعا ليس لى فيه ناقة ولا جمل.

ومن هنا أؤكد أن القضية ليست يمينا ويسارا، ليست تدينا وعلمانية، ليست إسلاما ومسيحية، وإنما القضية هى الحركة ضد الجمود، والشباب متحرك بطبيعته، فإذا فرضنا عليه الجمود فهو يختار جموده بنفسه فى أقصى طرف يختبئ فيه بعيدا عن جمود الميوعة الخفي، فنسميه – حينذاك للأسف – متطرفا، وننسى أنفسنا وموقعنا.

ثانيا: مسامية السماح

نحن عادة نتحدث عن السماح والحرية والرأى الآخر– وخاصة من جانب السلطة– وكأن المسألة منحة استماع، أو فرصة صياح، أو فضفضة..إلخ، والشباب – بفطرته وبغض النظر عن توجه ومحتوى انتمائه– لا تنفع معهم هذه الخدعة، وإنما يكون السماح سماحا حين تكون الكيانات المتقابلة نفاذية المسام بمعنى أن الرأى الآخر ينفذ إلى كيانى فيغيرني، بقدر ما ينفذ رأيى إلى كيان الآخر فيغيره، وبغير هذا يصبح كل حديث عن حوار أوحرية هو تلويح بما لا يكون، أو سماح من الظاهر أو مع وقف التنفيذ، وكل هذا لا يقابل إلا بالتمادى إلى أقصى الطرف البعيد، ثم الجمود.

ونحن إذا كنا نأخذ على الشباب الانغلاق والجمود والعمى وصمم الجـدران، فعلينـا نحـن أولا أن نتساءل إلى أى مدى نحن غير ذلك، وبأى قدر نحن نتحرك فعلا من خلال اختلافنا معهم، وبأى قـدر نحن ندخل فى مسام عقولنا هواء متجددا سواء كان قادما من الشمال أم من الجنوب، من التاريخ أو من حسابات المستقبل؟

لا يمكن أن يتحقق أى قدر من السماح من هذا النوع النفاذى إلا إذا لم توضع أية محظورات – أيـة محظورات – على الجانبين نهائيا، فليس من حق السلطة أن تضع حدودا لا يتخطاها المحاور بما فـى ذلك مسألة 'قلب نظام الحكم' لأن المحاور على الجانب الآخر يتصور أنه بمحاولة التغيير إنما يقوم بـ 'عدل نظام الحكم" الذى يراه مقلوبا –وعلى الجانب الآخر ليس من حق الجماعات أن تضع حـدودا لا يتخطاها المحاور مهما بدت هذه الحدود مقدسة، ولا خوف على دين الإسلام القـوى الحنيـف الـذى استمر أكثر من أربعة عشر قرنا من الزمان يعطى ويهدى ويوجه، لا خوف عليه من فكر آخر حتـى لو كان هذا الفكر هو الإلحاد، إنما يخاف الشخص على أمر هـش لا يحتمـل المواجهـة والإنكـار، والإسلام خاصة، والدين عامة ليسا بهذه الهشاشة.

إذن فالسماح على الجانبين ينبغى أن يكون مطلقا مطلقا حقيقة وفعلا.

بعض الإشارات والتعقيبات "الأخرى":

وحتى أعتذرللقارئ عن بعض ما بدا تنظيرا أقرب إلى ما انتقدت به غيرى فى البداية، أتقدم بـبعض الملاحظات "الأخرى" الأقرب إلى اللغة السائدة قائلا:

١- إن المجتمع لا يوصف بالإرهاب أو غيرالإرهاب لمجرد أن فئة من فئاته قد جاوزت الحدود

٢- إن مجتمعنا – رغم كل شيء مازال من أقل المجتمعات عنفا وأكثرها أمانا (وقد تكرر هذا القول من أكثرمن محلل ودارس قبلى)

٣- إن الاقتباس العشوائى من الأنظمة لا يصلح لأى شيء، وإن لكل نظام مساوئه ومضاعفاته، فنظام الديمقراطية الغربية يسمح للمافيا بما يعرفه الجميع، ونظام الشمولية الألبانية (سـابقا) يجعـل مـسألة الإرهاب حكرا على الحكومة، وهكذا، ومن المستحيل أن ننـادى بالديمقراطيـة ثـم لا نتـصوركيف ستستغلها المافيا والجماعات على حد سواء، كذلك يستحيل أن نرضى بالشمولية (التى يقل فيهـا مـا يسمى الإرهاب تماما) ثم نرفض إرهاب الدولة...وهكذا.

٤- إن العقد الاجتماعى الذى يحكمه الدين الحقيقى، والعادات الأسرية الكريمة، والالتـزام الأخلاقـى هو الذى حافظ على مجتمعنا بكل هذا الأمان والقوة حتى الآن، ولا بد من البحث عن جذوره الخفيـة، لإحيائها بالرعاية والري، وفى رأيى أن هذا العقد الاجتماعى هو أقوى وأعمـق ممـا تدعيـه حاليـا منظمات حقوق الإنسان الأمريكية الصنع.

٥- إن الإحصاءات عندنا محدودة، وأجهزة رصد المعلومات ضعيفة المصداقية، فمن ناحية لا ينبغى أن نطمئن إليها، ومن ناحيةأخرى لا مفر من طلبها ومحاولة الاستناد إليها.

٦- إن أنصاف الحلول هى ألعن من اللاحل، كما أنه لا يوجد حل واحد سحرى كما سبقت الإشارة.

٧- إنه لا مفر من القبول بجرعة ما من العنف ما دمنا رضينا أن نحذو حذو من أصابهم هـذا الـداء العصرى القبيح.

٨- إن الخوف كل الخوف يأتى من فرط النصائح ووهم الميوعة، وعلينا أن نختار: إمـا المواجهـة الشريفة بكل القوة والحجة غير المشروطة من الجانبين، وإما القهر الصريح أو الخفى الخطر.

٩- لا بد من استيعاب طبيعة القضايا التاريخية والحضارية التى تواجه شبابنا فى هذه المرحلـة، ثـم إتاحة الفرص المتنوعة لتناولها بالطرق والبدائل الممكنة، وإليكم بعض ذلك:

١- قضية ما يسمى زورا وبهتانا النظام العالمى الجديد، وهل نحن مشاركون أم منفـذون، سـادة أم عبيدا (أنظر احتكار السماء مؤخرا فى جنوب وشمال العراق مثلا!!!)

٢- قضية المواجهة مع الغرب: وارتباطها بقضية دورنا الحضارى الحالي: هل عندنا ما نعطيه ؟ هل عندنا ما نضيفه؟ وماهى فرصنا الحقيقية فى الإبداع لا التقليد (لا تقليد الغرب، ولا تقليد الماضي)

٣- قضية العدل، وهل ثمة سبيل إلى الاطمئنان أن العدل ممكن أو قادم أو محتمل، ناهيك علـى أنـه قائم أو حقيقي

٤- قضية السماح لمستويات الإنسان الفرد (الشباب خاصة) بحق كل مستوى من وجوده فى التعبيـر: مستوى الفرحة، ومستوى الغناء، ومستوى الإيقاع الجسدى (الرقص) ومستوى المشاركة فى الهم إلخ.

[أين المهرجانات الشعبية فى الموالد والأعياد (الكارنفالات؟)، وأين أغانى العمل الجماعيـة، وأيـن فرص الشباب للفرحة المشتركة، وأين فرص الشباب للنشر المبتدئ، وللخطأ، وللجـسارة، وللـرحلات وللمخاطرة؟]

٥- قضية التعليم القهرى (بما فى ذلك جمود وتكرار أغلب ما يسمى البحث العلمـي) وهـل يـؤى التعليم دوره فى الحفز إلى توسيع الوعى أم أنه سلطة قاهرة قاطعة تمولها مؤسسات إسـتهلاكية تتبـع اقتصاد السوق لا تنمى مغامرات الإبداع

٦- وأخيرا قضية القضايا: الإبداع: إن الإبداع هو أقصى روائع التطـرف، وكلمـا عمـق الإبـداع وتأصل، كان التطرف الحركى أعمق وأنضج ثمارا، وإذا كان لنا أن نستوعب حركة الشباب، ونحتـرم توجهاته، ونقلب تطرفه إلى إنتاج أصيل يضيف للحياة ويشارك فى الحضارة، فلن يكون ذلـك إلا مـن خلال فرص الإبداع حقيقة وفعلا.

الخلاصة:

إن القضية المطروحة ليست قضية أن الشباب لا يجد شققا أو وظائف فهو لذلك يتطـــرف ويمـــارس الإرهاب، وإنما القضية المطروحة هى أن عقول شبابنا(وأجسادهم) لا تجد مساحة للحركة، أو قـــضية للانتماء، أو فرصة للتغيير، أو مجالا للإبداع.

وهذه الأمور كلها لن تتوفر بحسن النية، ولا بالنصائح والإرشاد، ولا بالدعوات الدينيـــة الفـــاترة، ولا بالقهرالسلطوى الطوارئي، وإنما هى جزء لا يتجزأ من المسيرة الحضارية التى يمثل الإيمان المصرى محورا أساسيا كيانيا فى حركتها العميقة والخاصة.

فضيلة الدهشة[3]

إذا تلفت حولك لأى نقاش، أو طالعت الوجوه فى أى اجتماع (سياسى أو علمـــى أو ثقـــافى أو حتـــى ديني) فى بلدنا هذا فى عصرنا هذا، فلابد أن يأخذك العجب وأنت تشاهد الثقة المفرطة تغمر الوجـــوه، أغلب الوجوه، تتناوب بانتظام مع إبتسامات السخرية وغمزات التهوين مما يجرى ويقال، يتم كل ذلـــك فوق أرضية متسعة من اللامبالاة تغمر وجوه غير المشاركين، ولابد أن تستنتج أن المتناقـــشين علـــى اختلاف هويتهم، إما شديدو الغرور، أو شديدو الغفلة، ولكنهم بلا جدال قليلو الدهشة، وكأن ما يقـــال – وما يقرأ (بالقياس) – **هو إما ما أعرف، فهو أصح الصحيح، أو ما لا أعرف، فهو لا لزوم له أو خطأ سخيف**، وكأن الكلام أصبح كلاما فارغا، (وهو الجديد الذى لا أسمح له أن يدهشني)، أو مفروغ منـــه (وهو القديم الذى لم يعد يدهشني)، وقس على ذلك ما يعلـــن أن الدهشة الخلاقـــة، والتقبل الإبـــداعى، والإستطلاع اليقظ، قد أصبحت جميعها من أقل الصفات التى تصف حياتنا العقلية.

ولعل فى هذه الظاهرة المتواترة ما ينبهنا بشدة إلى ضرورة إعادة النظر فيما حدث فى عقولنـــا حـــين كادت تستسلم تماما للمعلومات المصقولة من كل مصدر، حتى أصبحت مخزنا للمعلومات أكثـــر منهـــا مصنعا للأفكار، كما لعله ينبهنا إلى أننا نلتقى "ونجتمع" لندافع عما نعرف، لا لنحاول أن نعرف مـــا لا نعرف، كما لعله ينبهنا أخيرا إلى أننا نقرأ لنؤكد ما نؤمن به، لا لنفحص ونراجع ما نؤمن به.

والثقافة ليست موقفا من الحياة فحسب، وإنما هى قدرة على الحياة، وتنبع هذه القدرة مـــن الاحتفـــاظ بأبواب العقل مفتوحة لكل جديد، مندهشة لكل اختلاف، سامعة لكل رسالة، وحتى يتم ذلك لابد أن نبـــدأ فى إعادة النظر فى موقفنا من كل شيء، وأن نعلم أن العقل البشرى هو كيان منـــدهش بالطبيعـــة، لأن غريزة الدهشة هى الدلالة الأولى على أن جديدا يصل إليه، لذلك فهى أنشط ما تكون فى الأطفال، أمـــا إذا كانت "الترجمة الفورية" جاهزة باستمرار لإستقبال كل المعلومـــات وتـــصنيفها أولا بـــأول حـــسب الرموز السابقة سالفة المعانى ثابتة الدلالة، فلا فائدة من التقدم ولا أمل فى الثقافة والحياة.

---

3 - الأهرام: ٢٤ / ١ / ١٩٨٠

وأخطر الخطر على عقولنا هو أن نتبادل المعلومات من موقع اليقين المستتب، فإن هذا اليقين ليس إلا صفة الله وحده، أما ونحن مازلنا بشرا فلابد من مساحة كبيرة من "الجهل المعرفى" (ليس هناك تناقض فى التعبير) الذى من خلاله يمكن أن نواصل مرونة تواجدنا متزايدة الاتساع متمتعين بما أحب أن أسميه هنا "فضيلة الدهشة"، وبيان ذلك:

أن تدهش حين تقرأ ما يخالف رأيك، وتعيد النظر فيه، وتحاول تقمصه، وتتصور إمكان صحته.. هذه فضيلة.

وأن تلتقى بإنسان آخر مختلف تماما عنك، فتنصت له ويرتفع حاجباك دهشة وتقديرا لبعد المسافة بينكما، ولكن بدلا من أن تزيدها بعدا هربا من الإختلاف، تتقدم بشجاعة تتعرف على ما كان يمكن أن تكونه.. وتتشجع أكثر فتوقن أنه "ربما".. وأنك "ربما".. فهذه هى روعة التفكير وكرامة العقل

ياترى كم منا يستطيع أن يلقى بنفسه من أول جديد فى بحار معرفة لا يعرفها، سواء كان من أهل اليمين أو أهل اليسار.

ياترى كم منا يستطيع أن يعيد النظر فى حكاية "يحيا الثبات على المبدأ" قد تشير ضمنا إلى الجمود أو البلادة أو الرعب الدفين، وليس بالضرورة إلى الاستقرار والاعتزاز بالرأي.

ياترى كم منا يتحمل أن يفتح أبواب جناته الخاصة لمن لا يعرف ممن لا يتكلمون لسانه؟

ياترى كم منا يستطيع ان يفرج عن بعض المعتقلين داخل سجن أحكامه المسبقة "لعلهم" أو "لعله"...؟ ولربما التقى الجمعان على خير أرحب.

إن حيوية أمة من الأمم يمكن أن تقاس بمدى وفرة هذا النوع الجيد من البشر ولعل فائدة الديمقراطية الوحيدة هى أنها تتيح قدرا من الأمن خليقا بأن يسمح للعقل البشرى بالتجول مع العقول الاخرى، والتنقل بين الأفكار الأخرى، والإنصات للإحتمالات الأخري.

وأود أن أوضح أخيرا أننى لا أفتح بذلك باب "الشك المطلق" ولكنى أحاول أن أحرك الجمود، وأهز التعصب بما فى ذلك التعصب للحرية ذاتها، فكل تعصب موت ولو كان تعصبا للحرية، وكل انغلاق خطير ولو كان وراء أبواب الجنة.

ومن هذه النافذة الرحبة يمكن أن تهب علينا نسمات المعرفة الحقة، المحملة بلقاح الحياة المتجددة، وإذا بنا نتمطى متألمين بعد طول التجمد والقرفصة، لنكتشف برودة رخام القبر الذى ترقد فيه عقولنا، لا يخفف منها جمال نقوش الرثاء على جدرانه.

ذكاء السؤال، والجهل المعرفى..!![4]

(.. لِمَ لا..؟)

حين بدأت أقلب أوراقى، وأحاول أن أنظمها بمناسبة استعادة حريتى – نسبيا– فى هذا العقد السابع الرائع من حياتى، اكتشفت علاقة قديمة بهذه الصفحة "دنيا الثقافة"، فهى لم تتحمل شطحات وإضافات قلمى مؤخرا فحسب بل إنها رحبت به و بما يثير ويشـــكل منذ زمن قديم.

تذكرت ذلك وأنا أقرأ كلمة قصيرة ظهرت لى فى نشرة لجنة الثقافة العلمية المسماة "رحيق"، والتى تصدرها لجنة الثقافة العلمية من لجان المجلس الأعلى للثقافة، الكلمة بعنوان "**ولم لا**"، فإذا بى أجد وجه شبه شديد بينها وبين مقال نشر لى فى "دنيا الثقافة" فى أهرام ٢٤ / ١ / ١٩٨٠، بعنوان " **فضيلة الدهشة**"، ياخبر**!!**، هل معنى ذلك أنها "كلمة واحدة " أكررها على كل الموجات، وبكل اللغات؟ يبدو ذلك، فيا ترى: هل هذا نقيصة أم إصرار؟ لست متأكدا لكننى فى قراءاتى النقدية اكتشفت أن كثيرا ممن تصديت لدراسة أعمالهم كانت لهم كلمة **أولى** أو **وحيدة أو محورية**، راحوا يقولونها بكل وسيلة على طول إنتاجهم وتنوعه

وحضرنى سؤال: إذا كانت هى هى نفس الكلمة، فلماذا لم تتضح بدرجة كافية من عمل واحد أو مقال واحد؟ ولماذا تلاحقنى تلك الهمهمات المحتجة بعد كل نشر للعامة والخاصة طالبة التوضيح؟

أحسب أن المسألة – هذه المسألة – تحتاج إلى مزيد من الحكى حتى لو كان إعادة، لأن مشكلة شبابنا هذه الأيام هى أنهم تنازلوا عن **فريضة التفكير** فى نفس الوقت الذى تنازلوا عن **فضيلة الدهشة**

وتفصيل ذلك هو **عود على بدء** لما سبق نشره منذ خمسة عشر عاما:

فى الكلمة الأولى (فضيلة الدهشة ١٩٨٠) انتهيت إلى أننا نتجنب معايشة الحيرة الخلاقة حتى نكاد نخجل منها، وأننا لا نتمتع بدرجة كافية بالقدرة على شجاعة السؤال المتولد من **فضيلة الدهشة**، وأن عقولنا –بذلك–" أصبحت **مخزنا للمعلومات، وليست مصنعا للأفكار**" وأنه "من أخطر الخطر على عقولنا أن نتبادل المعلومات من موقع اليقين المستتب، فمثل هذا اليقين ليس إلا صفة الله وحده، أما ونحن ما زلنا بشرا فلا بد من مساحة كبيرة كبيرة من الجهل المعرفى

فما هو هذا الجهل المعرفى، وكيف نمارس ذكاء التساؤل ؟

إليكم ما جاء تحت عنوان " **ولم لا**"[5]؟

"يتساءل الطفل أسئلة شديدة الدلالة والقوة، وإن بدت للناضج أنها غريبة وغير ذات موضوع، فمثلا يمكن للطفل أن يسأل: لم تشرق الشمس من المشرق، فيجيب والده مستغربا أومحتجا (أو منزعجا)

---

4 - الأهرام: ٢٦ / ٢ / ١٩٩٦

5 - رحيق: النشرة الدورية للجنة الثقافية العلمية ١٩٩٥

وهل معقول أن تشرق الشمس من غير المشرق، لقد سموا المشرق مشرقا لأن الشمس تشرق منه، هل معقول أن تشرق الشمس من المغرب؟، فيجيب الطفل ببراءة إبداعية: **ولم لا؟**، وما لم يستمر النهى والشخط والنطر، فإن الأب قد يـــستثار أو ينزعج، أو يفكر (!!).

فماذا نفعل بأطفالنا ونحن نقتل فيهم هذا التساؤل الرائع المبدع؟

وهناك رد ظريف فى اللغة الفرنسية حين تسأل واحدا عن سبب كذا مستعملا أداة الاستفهام: "لماذا"؟ فيرد مازحا أو متحديا أو موقظا: ولماذا لا(Pourqui <==> ? Porqoui) مثل ذلك فى الانجليزية (Why<==>Why not) فأين ذهبت مثل هذه التعبيرات فى العربية.

دعونا نحاول أن نحصى عدد البديهيات التى ترزح عقولنا تحت ثقلها:،سواء كانت بديهيات علمية (أو هكذا تسمى) أو بديهيات تراثية أو دينية (أو هكذا يزعمون) – وسوف نكتشف أن ردودنا حولها بأنها بديهية هى ليست ردودا أصلا، بل هى تسليم غير مـــبرر، ومنذ حاول سيدنا آدم عليه السلام أن يكتشف سر الشجرة المحرمة، حتى سيدنا إبراهيم وهو يفترض لنفسه الإله تلو الإله، ثم قفزا إلى سقراط وهو يجادل أن الظلم قد يكون عدلا من عمق بذاته فى موقف بعينه، عبر كل ذلك كان العقل البشرى يتساءل بشجاعة تهدى إلى الإيمان والحكمة أنه: "**ولم لا**"؟.

حتى أرقام العلم وإحصاءاته، لم تعد أرقاما لها قداستها، وإنما هى اجتهادات مرحلية بطريقة محدودة، تفيد إضاءة زاوية بذاتها، وقد يثبت خطؤها بطريقة أخرى من مدخل آخر، ولم لا؟ أليس هذا هو سبيل نمو المعرفة؟

والتاريخ الموثق نفسه لابد أن يؤخذ الآن بحذر حصيف، والمؤرخ الحقيقى لايستسلم لوثيقة لمجرد أنها مسجلة، وإنما هو يعمل تساؤله فيها وحولها، وكأنه طول الوقت يطرق نفس الباب الرائع للإبداع: **ولم لا؟**

والمؤمن الذى استلهم إيمانه من سلامة حيويته، قد يخجل الملحد المتحذلق المسجون داخل حذق عقله حين يطلب منه الأخير: إثبت لى أن الله موجود، فير دعليه المؤمن، إثبت لى أنت أولا أنه غير موجود، فالمؤمن هنا يمارس حقه فى: "**ولــــم لا**".

هذه ليست دعوة للبلبلة وهى ليست مدخلا لهز الحقائق الثابتة، إن جاز للحقائق أن تكون ثابتة، فالحقيقة فى أحسن صورها هى **وعد بيقين يعدنا بيقين أصدق وهكذا.**

إن واقع الأمر يقول: إن حياتنا ازدحمت بالمسلمات والبديهيات سواء كانت تراثية جامدة أوعلمية مختزلة، فنسينا أن **الحقيقة متحركة بطبيعتها**، وأنه لا دائم إلا وجه الله سبحانه، ووجه الله دائم بدوام التوجه إليه وليس بالثبات عند تصورنا له، فحقيقته هى أنه ليس كمثله شيء سبحانه وتعالى عما يصفون.

إننا فى أشد الحاجة أن نحيى التساؤل الدائم عن ما هو "**ولـــــم لا**" ؟، وهذا ليس مضيعة للوقت، ولا هو دعوة للعدمية.

ثم إننا فى حاجة أن نحسن السؤال، بقدر أكبر من أن نكون جاهزين للإجابة.

إن السؤال الذكى هو الذى يصيغه السائل بحيث نرى من خلاله المراحل التى مر فيها حتى ظهر هكذا، وهذه المراحل كلها معرفة منظمة سمحت للجزء الغامض أو الناقص من سلسلة المعارف أن يصاغ فى سؤال "ذكى".

أما السؤال الغبى والطفيلى فهو السؤال الذى يظهر أن سائله لم يبذل جهدا قبل أن يطرحه، وأن عقله مثل الوعاء الفارغ الذى ينتظر من المسئول أن يملأه له بغض النظر عن المادة التى يملأ بها.

إن السائل الذكى يمارس حقه فى ما أسميته "الجهل المعرفى"، فحق الجهل للعالم هو المقابل الموضوعى لحق المؤمن – وواجبه– فى الإيمان بالغيب، بمعنى أن العالم الذى يمارس حقه فى الجهل فالسؤال الذكى هو الذى يواصل البحث والمراجعة حتى يبدع ويضيف إلى علمه مزيدا من أبجدية المعرفة، وإلى جهله مزيدا من توجه التساؤل الخلاق. كذلك المؤمن الذى يؤمن بالغيب، ليس هو من يستسلم للخرافة، أو يطمئن للإجابات الجامدة سابقة التجهيز، وإنما هو المؤمن الذى يعرف كيف يسأل، وكيف يقف موقفا ناقدا من الإجابات التى تصله، احتراما لما وهبه الله من نعمة العقل، وطزاجة الوجدان، بما يتيح لإيمانه أن يتحرك إلى ما بعده، وهكذا ياسادتى العلماء ورجال الدين (وكلنا ينبغى أن نكون كذلك!!!) دعونا نستزيد علما ومعرفة من واقع حركة العقل الصحيح كما خلقه الله.

المسلمات مسلمات بقدر ما تفيد مرحلة بذاتها، لكنها ليست مبررات للتراخى العقلى، والاستسلام المتجمد.

فصل فى الحركة والجمود[٦]

يبدو الحديث عن ما يسمى الإرهاب، بعد كل ما قيل عنه وحوله، وكأنه من قبيل تحصيل الحاصل، ذلك أن أغلب (أو كل) الأسباب قد قيلت، كما أن أغلب (أو كل) التبريرات قد طرحت، كذلك أغلب (أو كل) التفسيرات قد استقصيت، ومع ذلك فالظاهرة تبدو ثابتة أو متزايدة، والحلول تبدو قاصرة أو مغلوطة، لذلك فنحن أحوج ما نكون إلى تقليب الأمر من جديد

إعادة تعريف، وإزالة خداعات:

هيا ننسى أو نتناسى – ولو مؤقتا– ما اعتدنا أن نردد، ونبدأ بالتساؤل:

---

6 - العربى أكتوبر، ١٩٩٤، رغم أن هذا المقال لا يتصل مباشرة بقضية الثقافة العلمية إلا أننى قدمته، ورتبته مبكرا لأوضح كيف يمكن أن يكون الحديث عن "المنهج" (منهج التفكير العلمي) ممارسة مباشرة تتجاوز مسألة التعريف الجامع المانع، أو الحديث بأبجدية معلومات علمية خاصة. وقد نشر فى مجلة العربى بعنوان: التطرف: انفجارات من فجوات الوعي.

هل هو التطرف أم أنه أمر آخر ؟ التعصب مثلا.؟

هل هو **الإرهاب؟** أم أنه التفجر العشوائى فى انتحار يائس؟

التطرف – فى ذاته– ليس عيبا، وليس خطأ، بل لعل العكس هو كذلك،

ثم ماذا نعنى بلفظ إرهاب هذا: "هكذا" ؟ إرهاب من؟ ضد من؟ لماذا؟ وكيف؟

ثم إن معظم الاجتهادات التى تبحث فى الظاهرة إنما تفعل من منطلق السببية الخطية: ويتراوح التفسير من اتهام الفقر (مع أن الظاهرة موجودة عند الأغنياء والفقراء على حد سواء) إلى الإسلامية (مع أن كاثوليك إيرلندا ليسوا مسلمين، ولا الجيش الأحمر اليابانى على ما أعتقد!!) إلى المساكن العشوائية (مع أنه لا "ماركوس" ولا "بن لادن" يسكنان فى المقابر) إلى آخر هذه الاجتهادات التى تـــلقى وتتردد هكذا والسلام.

وأخيرا فإننا نعمم الحديث عن الظاهرة دون تصنيف نوعى تفصيلى، فنتصور – من فرط تكرار التعميم– أن تطرفا فى ألمانيا هو مواز لمثله فى اليمن، وأن إرهابا فى القاهرة يمكن أن نجمعه على إرهاب فى بيروت، أو أن ما يجرى فى الجزائر لا يختلف عما يجرى فى أيرلندا، وهكذا، صحيح أن ثمة عاملا مشتركا يمكن أن يربط بين أى شيء وأى شيء، وخاصة إذا توحد المظهر، لكنه صحيح أيضا، وأكثر، أن المظهر الواحد قد يدل على أمور أبعد ما تكون عن بعضها البعض.

لكل ذلك سوف أحاول فى هذا المقال:

أولا: أن أقدم مراجعة لبعض ما يشاع عن الظاهرة ومسمياتها، ثم:

ثانيا: أن أقدم تفسيرا فرضيا أرجو أن يكون مثيرا للنقاش والمراجعة حول ما استوحيته مما يجرى، وبخاصة فى وطننا العربى دون استبعاد لغيره.

المراجعة:

أبدأ بتكرار دفاعى عن التطرف، حيث أنه عندى مطلب شديد الأهمية، وخاصة فى حياتنا المعاصرة التى تتصف بالميوعة والتسويات الهامدة، وكان أستاذنا العقاد وهو يمتدح – ضمنا–تشاؤم شوبنهاور ينبهنا إلى أنه خير للإنسان أن يكون متشائما عن أن يكون بلا موقف من الحياة تحت زعم الحياد، وحين سطح توفيق الحكيم الإسلام إذ أدرجه ضمن تعادليته تنبهت – ضد مديحه وتفلسفه – إلى خطورة فهم وسطية الإسلام على أنها تلفيق طيب.

ودفاعى هنا عن التطرف الأصيل يقدمه باعتباره مطلبا ينبغى أن يكون ضمن حساباتنا التربوية والإبداعية، فالتطرف – كما أكرر دائما– هو أن تقف بوضوح على طرف قضية، تعلن موقفك وتواجه الواقف على الطرف الآخر، ثم ترى ويرى، ثم تتحركان مع نبض الحياة من طرف إلى طرف، إن التطرف – من وجهة النظر هذه– وأكرر، هو نقطة أقصى يصلها بندول متحرك، فأين العيب فى ذلك؟

إن الخطر يبدأ حين تتجمد الوقفة عند ذلك الطرف بشكل أو بآخر، وحين يحدث ذلك فنحن أمام الجمود أو التعصب وليس التطرف. (أنظر المقال السابق).

ثم أثنـــى بالانتباه إلى مفهوم الإرهاب دون أن أقصره على المفهوم السلبى، فالإرهاب جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة والتربية والحرب والسياسة، وما لم يرهب الطفل لن ينمو، وما لم يرهب عدو الله فلن ينتشر خير الله، وما جعلت علانية الأحكام فى القضاء، وأحيانا علانية التنفيد لهذه الأحكام إلا لتحقيق الردع العام، والردع العام هو نوع من الإرهاب يهدف إلى الوقاية من الجريمة قبل أن ترتكب، ولكى نعيد للإرهاب الإيجابى قيمته البناءه دعونا نراجع بعض البدائل (أو النقائض) المطروحة التى لا تلبث أن تظهر على حقيقتها لتثبت أنها ليست سوي: الرشوة بالوعود، أو الحوار الماسخ أو المكتوم، أو الحرية التى تستعمل من الظاهر لصالح الأقوى والأقدر؟

القضية إذن لا ينبغى أن تبدأ بمفاهيم فضفاضة ومغلوطة، بمعنى أننا لا ينبغى أن نقف من البداية "هكذا" ضد التطرف دون تمييز، وإنما ينبغى أن تكون وقفتنا ضد الجمود والتعصب، **وسواء كان هذا الجمود على أقصى الطرف أم فى صرة الوسط** أم على الطرف الآخر، فهو الخطر الذى تصدر منه الشظايا والنيازك حين يتمادى التشقق وراء الفراغ.

كذلك لا ينبغى أن نتصدى لحرب الإرهاب هكذا دون تمييز بغض النظر عن محتواه، وإنما ينبغى أن **نحارب الإرهاب الذى يجهض الحوار، وإرهاب قهر السلطة، وإرهاب وأد التفكير، وإرهاب المخالف** لمجرد أنه خالف، (إلخ)

فالمراجعة الحالية تقول: إن التطرف المتحرك هو أفضل من ميوعة تتدعى الحياد، بل هو رد على ميوعة تدعى الحياد.

كذلك تقول هذه المراجعة إن شجب الإرهاب دون تمييز هو إدعاء مسالمة لا وجود لها بطبيعة الوجود.

لكن المراجعة "هكذا" قد لا تعنى شيئا إن لم يترتب عليها تغير جذرى فى المواقف، وهذا هو ما يأمله هذا المقال

الفرض البديل:

إن ما يجرى تحت ما يسمى الإرهاب أو التطرف هو ظاهرة عنف انفجارى خطير نشأ وينشأ نتيجة تفاعل ثلاثة عوامل:

الأول: تراكم فجوات الوعى لتخلق فراغا سلبيا جاهزا للتفجير،

والثانى: تسكين الوجود البشرى (وخاصة للشباب) بإحاطته بقشر صلدة تمنع الحركة أو بتحريكه زيفا حول نفسه

الثالث: استمرار حتم الحركة – فى نفس الوقت– وبالتالى اندفاعاتها العشوائية أو المدمرة للقشرة وما حولها

وهذا الفرض ليس تنظيرا خالصا، وإذ سوف نحاول أن نبين بعض جوانبه الواقعية، وإن كنا سنقصر الحديث على مجتمعنا العربى أساسا، رغم أن الفرض يمكن أن يمتد إلى غيره.

(١) أما بالنسبة لفجوات الوعى، فأود التنبيه إلى أن أسلوب الحديث القديم عن الشعور واللاشعور قد أصبح غير مناسب للفهم الأحدث لقوانين الإنسان، بل لقوانين الطبيعة، كذلك فإن أسلوب الحديث عن السبب المتخفى فى اللاوعى والمسئول عن المرض النفسى أو الاضطراب السلوكى أصبح أكثر اختزالا من أن يستوعب الطبيعة الحيوية كافة، وما أقدمه هنا عن فجوات الوعى، هو من منظور تركيبى، وهو يبدو أبسط وأكثر مباشرة، إلا أنه أخطر تأثيرا وأعمق تناولا، ذلك أن هذا المفهوم التركيبى إنما يركز على خطورة تباعد مستويات الوعى عن بعضها البعض، وهو الأمر الذى يخلق الفجوات التى أشير إليها هنا.

ولا يباعد بين مستويات الوعى أكثر من التركيز على مستوى من الوعى دون الآخر، والذى يجرى فى العالم المعاصر (وخاصة عالمنا العربي) هو التأكيد على المنطق الخطى أحادى البعد، ومن ثم على مفهوم مسطح لكل من السواء والأخلاق والعلم جميعا، وفى عالمنا العربى يتم هذا التضخيم لمستوى واحد حتى الإلغاء لكل ما عداه من خلال مصدرين أساسيين:

الأول: تجميد نص دينى بما ليس فيه، وما ليس له، بدلا من استلهامه لما يتجاوزه به.

والثانى: غلبة منهج علمى محدد ينفى أغلب ما عداه، أو كل ما عداه.

وهذا وذاك بالإضافة إلى قشرة أخلاقية جافة وثابتة، يجعل شبابنا خاصة محروم من فرص النمو المتكامل المرن، **فيتضخم** المستوى الظاهر للوعى لتتباعد المستويات الأخرى منفية ومبعثرة، وهذا مصدر تكوين ما أسميته "**فجوات الوعى**"، **وهى مناطق الفراغ الناتج عن تجاهل كلية الطبيعة البشرية، وعن الافتقار إلى الحوار بين مستوياتها، وعن التبادل بين نشاطاتها.**

وتنشأ هذه الفجوات بسرعة متزايدة عند شبابنا نتيجة لاختزال الوعى بالتربية الأحادية والتسطيح الدينى معا، وهى تتجمع خاصة بشكل خطير حين يتجمع الشباب ليكون فصيلا دينيا متحمسا وأعمى فى نفس الوقت، أو – على الجانب الآخر– حين يتصور الشاب أن المنهج العلمى المحدود هو مصدر كل المعارف دون استثناء،. ومع تزايد الفجوات يحرم الشباب من الحوار، ومن المرونة، ومن الخيال، ومن السماح.

(٢) فإذا نظرنا إلى ما يغطى هذه الفجوات المفسخة لكليـــة الوعى، فلابد أن نتبين أنها تلك الطبقة المتضخمة من الوعى الظاهر، وأنها طبقة حجرية صلدة (= أسمنتية مسلحة!!)، وهى كذلك بسبب

نشاطها التجميدى المنظم والمتزايد، وفعل التجميد هذا إنما يتم من خلال وسائل حديثة ظاهرها الحركة وباطنها التوقيف تحت وهم "السير فى المحل"

ذلك أنه بالرغم من الزعم بأننا فى عصر السرعة، وبالرغم من لـــهاث المواصلات والاتصالات، فإن الجمود مفروض على ظاهر الوعى بشكل جاثم، فهذا الطبق (الدش) المستقبل لأقمار العالم الصناعية يوهم الناس بأنه ينقلهم من أقصى الدنيا إلى أقصاها، فى حين أنه لا يفعل إلا أن يثبتهم فى أماكنهم أمام التلفاز، كما أنه يثبت تفكيرهم فى موقع المتلقى المستمر، حيث لا يترك لهم أدنى فسحة من الوقت لكى يرتبوا هذا الزخم المحيط من المعلومات المتسارعة، وبلغة فعلنة المعلومات **فإن ما يجرى لتجميد ظاهر الوعى هو نوع من انسداد فى جهاز هضم المعلومات، وهكذا** تحل أوهام الحركة محل حيوية الاستكشاف، كما تحل نقلات التلقى المتلاحقة دون عمق أو مراجعة محل تلقائية النظر ونقد الإدراك.

ومن جانب آخر يتم تسكين آخر من موقع آخر ألا وهو " أحادية ومركزية الرأى والنظام" فى العالم، فنحن نعيش، من واقع الاتصالات والمواصلات، ومن واقع التفرد السياسى والتفوق الاقتصادى، نعيش امتحانا لم تختبر بمثله البشرية من قبل، فثمة نظام عالمى جديد (واحد)، وثمة حقوق لإنسان نموذجى (من صـــنع الغرب الصناعى، وليس كما خلقه الله)، وثمة مؤتمر عالمى للسكان، وعام عالمى للطفل والمرأة والمعوق،وعقد عالمى للدماغ، وكل ذلك يتبع نموذجا واحدا من التفكير يتصف بالشفقة والصدقات، وزعم الحرية، وشعارات الديمقراطية، وضبط الظاهر بقوانين الظاهر، بأقل قدر من الحوار البديل والتكامل الأعمق.

ولفظ العالمية اليوم هو لفظ لم يعد له معنى عالمى، فالعالمى – اليوم– هو الذى يردد "صوت سيده" لا أكثر ولا أقل، فثمة ديمقراطية واحدة، ومؤتمر واحد، وقانون واحد، ورفاهية واحدة تصدر جميعا عن ولايات متحدة (ليست هى نفسها واحدة: يا للمصادفة !!!).

ويتطلع الشباب– شبابنا أكثر– إلى دور يلعبه، أو إسهام متواضع، أو انبعاث مناسب، فلا يجد إلا الآلة العالمية (فكرا ووعيا، وليس فقط: سلاحا ودولارا) وهى تقوم بكل العمل،فينتهى به الأمر إلى الانتظار الساكن وبالتالى إلى الجمود الظاهر، ووراء هذا الانتظار والجمود تتجمع فجوات الوعى فى هيئة جب من الفراغ السلبى القابل للتفجير.

وحين يلتقط المستضعفون خطر هذا النظام الواحد، لا يـســـمح لهم إلا بالتململ على أحسن الفروض، فيتململون، لكن أحدا لا ينصت، فينسحبون، وأحدا لا ينتبه، فيفتشون فى أوراق قديمة، وحتى لا يعيدون تنظيمها، فيأخذونها كما هى باعتبار أنها تميز هويتهم وربما تستطيع أن تحميهم من هذا النظام الأوحد الذى يلغى وجودهم بإصرار غبى، وهم بذلك يختارون مواجة التجميد بجمود أضمن،

ومواجهة الوعود الزائفة بوعود أكثر بريقا وأبعد اختبارا، ومواجهة الرشوة الرفاهيتية بالحلم برفاهية أخلد، وهكذا.

التركيب الخطر:

نحن الآن أمام فراغ بالداخل نتيجة لتجمع فجوات الوعى، وجمود فى الخارج نتيجة لقهر فيضان المعلومات العصرية السطحية المتلاحقة، وكذلك برودة التراث المحفوظ فى ثلاجات الخوف.

فكيف التحرك؟ إلى أين ؟

الفراغ بالداخل فاغر فاه، والجمود بالخارج يزداد جفافا حتى يكاد يتشقق.

فى ظل ذلك تصبح أى حركة حقيقية خطرا حقيقيا سرعان ما يتفجر فى أى اتجاه، وفى كل اتجاه، إلا اتجاه التقدم والبناء، لكن الشباب – بما هو شباب– لا يملك إلا أن يتحرك، لكن لا طريق، ولا رفيق

الــمخرج الممكن للحركة فى مثل هذه الظروف هو الاندفاع العشوائى إلى أقصى طرف ما، فهو التطرف، لكنه ليس تطرفا اختياريا أو حركيا، لكنه اندفاع اضطرارى لأنه الحركة الوحيدة الممكنة.

ثم يترتب على هذه الاندفاعة خوف لاحق من أى رجعة أو مراجعة فهو الجمود فى أقصى الطرف لكن الحركة مازالت تلح، الخلايا مازالت حية، والاندفاع متلاحق والطريق مسدود.

فهو الانفجار فى كل إتجاه وأى إتجاه: وهذا ما يسمونه الإرهاب، وتتضاعف الاندفاعات فالتفجر لأن الحركة تتكثف أضعافا بلا توجه حين تكون فى فراغ، والفراغ جاهز نتيجة تجمع فجوات الوعى السالفة الذكر.

التطرف الخطر إذن هو اندفاعة غير موجهة تنتهى إلى أقصى الطرف لتتجمد فى تحفز ذاهل، والإرهاب هو انفجار يضاعفه الفراغ السالب.

هذه هى النتيجة الطبيعية للحركة الفجائية فى فراغ سلبى وراء قشرة جافة من القهر المنظم.

وكلا من التطرف والإرهاب هو إعلان أن حركة الوجود الحتمية لم يعد لها المجال أو التوجه الذى خلقت من أجله، لكنها مازالت تعلن حضور طاقة تحتاج إلى مسار، إلا أنها تجد الطريق مسدودا، والفراغ سلبيا، مع أن الطاقة تلح وتضغط: فهو الانفجار العشوائى.

توجهات الحركة العشوائية للتدمير:

متى انتهت طاقة الوجود – فى الشاب خاصة – إلى حركة فى فراغ، وراء قشرة فى جمود، فإن أى قوة غاشمة أو خبيثة أو تدهورية يمكن أن تستولى على هذه الطاقة المشتته تستعملها بارودا تحشو به خزينة مصلحتها الذاتية، سواء كانت سلطة مادية أو سياسية أو دينية.

والعمل؟

مما سبق يتبين أن مواجهة هذه الظاهرة التى أسموها التطرف فالإرهاب، والتى أسميها **الآن انفجارات الفراغ وراء قشرة القهر**، لا تتم بإجراءات أمنية تزيد جفاف وصلابة القشرة، ولا بحوار سطحى يزيد من فجوات الوعى، ولا بتخدير رفاهياتى يبرر السكون الخافى للعواصف، إنما يكون الحل بفك كل هذه المعادلة الجهنمية.

فأولا ٧: لا بد أن يعيش الإنسان **(** الطفل والشاب خاصة**)** كلا مرنا، تتبادل مستويات وعيه بقدر ما تتكامل.

وثانيا: لابد من إتاحة التناوب بين التلقى والاستيعاب، بين فرط المعلومات المدخلة والقدرة على هضمها، وهذه قضية تربوية شديدة الحساسية والتعقيد.

وثالثا: لابد من إتاحة الفرصة لاستمرار الحركة فى توجه نمائى، ولا تستمر الحركة إيجابيا دون مخاطر الجمود فالتفجر، إلا بالإبداع، ولا يقتصر معنى الإبداع على أن ننتج فنا أو نكتب شعرا، وإنما أعنى به موقف الحياة الناقد، والمتميز فى تعامله مع المعلومات بطريقة متجددة مرنة وبناءة.

وكل هذا يحتاج إلى ثورة تربوية سياسية ثقافية إيمانية قادمة لا محالة.

الوعى الشعبى، والطب البديل، والمنهج العلمى[8]

يقول المثل الشعبى إيش رماك على المر؟ قال: الأمر منه، وقياسا يمكن القول إيش رماك على الخرافة؟ قال: قصور المنهج العلمى السائد، وقياسا ثالثا يمكن ــ أيضا ــ القول: "إيش رماك على الطب البديل"؟ قال: ضيق أفق الطب الرسمى (ناهيك عن تكلفته واغتراب كثير منه).

قبل أن ندخل فى الموضوع أود أن أنوه إلى حقائق أساسية لازمة لحسن قراءة هذا المقال.

أولا: إن الممارسات الطبية ينظمها قانون رسمى محكم، وملزم.

ثانيا: إن تطبيق هذا القانون ليس مهمة وزارة الصحة وحدها، فتطبيق أى قانون يحتاج إلى جهاز ضبط، وأحكام قضائية، وإمكانية تنفيذه على أرض الواقع.

ثالثا: إنه إذا فشل تطبيق قانون ما حتى أصبحت مخالفته هى الأصل، فلابد من إعادة النظر فى مسئولية السلطة التنفيذية، وأيضا فى معنى إصرار الغالبية على تجاوزه واختراقه.

رابعا: إن احتمال سوء فهم ما أكتبه الآن فى هذا المجال أكبر من احتمال سوء فهم ما جاء فى مقال الصديق – الزميل أ.د. سمير حنا صادق بعنوان "المنهج العلمى والاكتشافات الطبية"، وهو المقال الذى أحاول الرد عليه،

---

7 - كتبت هذا المقال قبل نشاطى فيما يسمى بالثقافة العلمية، وإذا به جزء من هذه الثورة التى حلمت بها، والتى تهدف إلى تشكيل الوعى العام بالمنهج الذى يسمح بالحركة والإبداع، على مسار المعرفة لتحقيق تكامل الوجود الممتد!!

8 - نشرت فى ١٦ / ٧ / ١٩٩٩

وأبدأ بالإشارة إلى مسئولية مخاطبة الشخص العادى، وهى مسئولية يستشعرها حتما من يتصدى للكتابة العلمية فى صحيفة يومية، وقد تساءلت عن كيف يكون موقف القارىء العادى حين يقرأ "إن المعرفة الأساسية تتضاعف كل ثمان سنوات"؟ هل يصبح هذا دافعا له كى يلاحقها؟ وهل يستطيع ذلك عالم متفرغ؟ لا أن يلاحق المعرفة الأساسية عامة، وإنما أن يلاحق المعرفة التى تتضاعف فى مجال تخصصه بهذه السرعة بعد هذه الصدمة المفيدة؟

ثم ألا يشير ذلك إلى احتمال أننا فى خلال سنوات قليلة سوف تتسارع المعرفة بمتوالية هندسية حتى تتضاعف كل سنة مثلا؟ فماذا يكون العمل؟

ثم إنى حين تقمصت القارىء العادى وجدتنى أمام هذه المعلومة الرائعة (المرعبة) أمر من الدهشة، إلى الانبهار، إلى التسليم إلى العجز، إلى انتظار من ينتقى لى من محيط المعرفة المتدفقه ما يلزمني!!! من هذا ؟ كيف يمكن ذلك؟ وعن طريق ماذا؟ ولأى هدف؟ لى، أم له، أم لنا، (نحن: من؟).

إن كثيرا مما جاء فى المقال المذكور هو حقائق هامة وصحيحة فى حدود منهجها، وأيضا فى حدود التعريف الذى حددها، و أخيرا فى حدود التاريخ الذى ظهرت فيه هذه المعلومات، لا أكثر، يستوى فى ذلك الكلام عن الذبذبات أو عن الطاقة أو غيرها مما ورد فى المقال، وسوف أمنع نفسى من الدخول فى مناقشة المشاكل اللغوية والعلمية والتعريفات الإجرائية التى تدور طول الوقت حول ماهية ومضمون ومنهج دراسة هذه الكلمات، لكننى سأكتفى بالإشارة إلى إشكالة دراسة "الوعى البشري"، وهو الأمر الذى اختزل (حتى باستقطاب سيجموند فرويد له إلى ما هو "وعى" و"لا وعى") أو أهمل أو استبعد، أو تشوه، ذلك أن ماهية الوعى البشرى مرتبطة أشد الأرتباط بإعادة تعريف مفهوم الطاقة، وكلية المنظومات، "وفعلنه المعلومات" والرياضة الكمومية و الطبيعة الكمومية، ولا تزال المحاولات مستمرة للتعرف على ماهية الوعى البشرى طول الوقت دون ظهور بشائر حل فى المدى القريب،

وأكتفى فى هذا الصدد بالإشارة إلى مقال شديد الإيجاز، شديد الدلالة ظهر فى نشرة المجلة البريطانية للطب النفسى النشرة الملحقة العدد ١٧ (سنة ١٩٩٣)، وعلى الرغم مما بالمقال من معلومات تفصيلية معقدة إلا أن عنوانه كان طريفا متحديا إذ يقول الفلسفة والطب النفسي: تساؤلات طفل ــ ذهنية: عن لماذا أنا هو أنا؟، وقد حاول كاتب المقال أن يبين أن عملية الوعى، وخاصة ارتباطها بعملية تحديد الوعى الذاتى فى مواجهة الوعى بالآخر، يمكن إعادة فهمها من خلال الإنجازات الأحدث لعملية فعلنة المعلومات Information Processing قائلا مثلا: إن الوعى،وهذا هو الأمر الجوهرى بالنسبة للشخص، هو ناتج عملية فعلنة المعلومات داخل أجهزة.. فى الدماغ.. الخ، ثم يضيف فروضا جديدة حول فكرة الوعى الكمى Quantum Consciousness، والمقال ينتهى كما بدأ بتعقيب طريف يقول: إن أما ستجيب

طفلها إذا ما سألها ماذا تقومين به فى عملك طول النهار؟ ستجيبه: إنى أحقق إمراضية تكثيفات بوز أينشتاين!!

والمغزى من هذا الاستطراد والمقتطف هو:

أولا: نلاحــظ أن تساؤلات الطفل البريئة، لماذا أنا هو أنا؟ هى قضايا مثيرة لفروض علمفلسفية شديدة العمق.

ثانيا: نلاحظ كذلك إن الاستجابات العادية لأسئلة عابرة مثل ماذا تعملين يا أمى، لو ترجمت إلى لغة علمية رصينة للمست أعقد مستحدثات العلوم، فهذه الأسئلة البسيطة والردود العابرة تتم بأعقد ما يمكن تصوره من فروض ونظريات وعمليات تحتاج الإحاطة بها إلى جهد فريق من العلماء، دون حسم كاف.

أخلص من هذا إلى أن علاقة الوعى البشرى الانتقائية بالمعلومات المتاحة، هى علاقة شديدة التعقيد، وهى تتجاوز الفهم، كما تتخطى مفاهيم وظيفة التفكير بشكلها التقليدى، إلى عمق المعلومات، إلى تكثيفات الكمومية، إلى ما لا ندرى، وليس معنى هذا أن المعرفة أصبحت مستحيلة، بل إنها –المعرفة– فى مراجعات واستيضاحات وإعادة رؤية، وطرح فروض جديدة واستخدامات أدوات جديدة، دائما أبدا، فماذا يفعل الشخص العادى إزاء كل ذلك؟

دعونا ننظر بإجمال متواضع إلى إشارات إلى بعض طبيعة ما نمارسه يوميا فى كل لحظة دون أن ندرى،

أولا: إن الذى يجرى عبر التاريخ، وحالا، هو أن الوعى البشرى فى أطواره الإيجابية ــ ينتقى ــ دون أن يعرف كيف ــ من محيط المعلومات المتاحة ما يحتاج إليه.

ثانيا: إنه فى الظروف الطبيعية يتفق ما يحتاج إليه الانسان مع ما يمكن أن ينتفع به، مما يضيف إلى إنسانيته ليحقق به بشريته، ويواصل تطوره.

ثالثا: إنه إذا أعطته العلوم هذا الاحتياج فبها ونعمت، وإذا أعطته الأديان هذا الاحتياج فيا فرحة المؤمنين والمبشرين، وإذا أعطته الفنون هذا الاحتياج فالمسيرة إلى صعود، وإن أعطاه حواره مع الطبيعة ما يحتاجه فيا لتوافق هارمونية الوجود، وعادة فى الأحوال الإيجابية – يتحصل كل منا على كل ذلك معا– من كل هذه المصادر معا.

رابعا: إنه إن لم تعطه لا العلوم ولا الأديان ولا الحوار مع الطبيعة ولا الفن احتياجاته الأساسية، فإن أبواب العشوائية تفتح على مصراعيها فى محاولة أن يحصل على ما يحتاج إليه بأى طريقة، لكن دون أية ضمانات تعد بنفعه، أو بتعميق إنسانيته، أو باضطراد تطوره

وبـــعــد

فليس معنى هذه المقدمة الطويلة أننى أدعو إلى فتح الباب على مصراعيه لكل من أمسك مغناطيسا، أو لبس غويشه، أو رن خلخالا، أو بحلق ساهما، أن يدعى أنه يرسل طاقة علاجية، يشفى بها مريضا أو يزيل بها ورما.

إن ما ينبغى علينا أن نتخذه إزاء مثل هذه الظواهر هو الانتباه ابتداءا إلى ما يلى:

أولا: إن تواتر ظهور ظاهرة ما عند عامة الناس لابد أن نتأملها أعمق، وألا نكتفى بقياسها بمقاييسنا المتاحة، دون بديل.

ثانيا: إن استمرار ظاهرة ما عبر قرون بلا حصر، لابد وأنه يعنى أيضا دلالة خاصة تحتاج إلى إمعان نظر أيضا.

ثالثا: إن انتشار نفس الظاهرة عبر العالم ــ مع اختلاف الأعراق، والثقافات، واللغات، والطبقات الاجتماعية ودرجة الثراء، لابد أن يستدعى مزيدا من التفكير والبحث.

رابعا: إن الاكتفاء بشجب مثل هذه الظواهر بالرفض، أو بالتكفير العلمى، أو العلمانى، أو بالترهيب الأصولى المادى، ليس هو الحل الأمثل ولا الأنجح ولا الأبقى، بل إنه قد يثير تكفيرا دينيا مضادا، ومقاومة عمياء بلا حدود.

وقبل أن أنتقل إلى وضع الفروض المتعلقة بهذه الظاهرة (الطب البديل) أود أن أشير إلى الاختلاف حول استعمال تعبير "العلم الزائف"، (أو "شبه العلم")، فهذا التعبير له استعمالات مختلفة، منها على سبيل المثال:

(١) استعمال المنهج العلمى استعمالا ناقصا، حينيوحى بتقديس إحصائيات وأرقام تفتقد إلى فروض مناسبة،أو مصداقية كافية، أو تحل تماما محل حقيقة نوعية الظاهرة ودلالاتها.

(٢) استعمال المنهج العلمى لنوع من العلوم يختلف جملة وتفصيلا عما وضع له هذا المنهج، مثل تعسف استعمال منهج التجريب فى العلوم الإنسانية، فنزيف طبيعة الظاهرة بزعم اللجوء إلى إحكام منهج لم يوضع لها أصلا.

أما أن نطلق اسم "العلوم الزائفة: على العلوم التى تتبع منهجا لا يروق لنا، أولا نعرفه، فهذا أمر يحتاج إلى وقفه ومراجعة.

ثم أنتقل أخيرا إلى محاولة قراءة حالة ودلالات ما يسمى الطب البديل هكذا:

أولا: إن هذه الظاهرة، منتشرة، عبر التاريخ من جهة، وعلى طول العالم وعرضه من جهة أخري.

ثانيا: إن هذه الظاهرة، إذن، تعنى شيئا للناس، قد يكون له عمق باطنى يغذى حاجة ما، نحن لا نعرفها تحديدا (حتى الدين نفسه يمكن أن يعتبر كذلك)، وبالتالى ينبغى أن تعنى شيئا لنا بالإضافة إلى إعلان ولع الناس بالخرافة.

ثالثا: إن تفسير استمرارية الظاهرة تاريخا وانتشارها جغرافيا (طولا وعرضا) لابد أن يرتبط بقدر من النفع، والاتساق، مع الطبيعة السوشيو ثقافية ــ البيولوجية التى أظهرتها وأبقت عليها هكذا.

رابعا: إن عجزنا عن التفسير لكل من طبيعة الظاهرة، وحقيقة احتياج الناس لها، وأسباب انتشارها واستمرارها، عجزنا عن تفسير كل ذلك بالوسائل والمناهج العلمية المتاحة قد يبرر إنكار الظاهرة أو شجبها، أو تكفير من يمارسها، لكنه لابد أن يدفعنا إلى المبادرة بإعادة فحصها سعيا – إلى الحد من تماديها، وفى نفس الوقت سعيا إلى شحذ أدواتنا للاستجابة الأصلح للحاجة التى أظهرتها، مؤكدين طول الوقت أن عمق البحث فيها، أو الاعتراف بالقصور تجاهها لا يعنى السماح لها، أو التغاضى عن مضاعفاتها.

خلاصة القول:

(١) إن الطب الرسمى به قصور ما، لعله قصور ضرورى أو مرحلى أو من طبيعة مسيرة العلم، لكنه قاصر عن الوفاء بحاجة الناس مما ألجأهم إلى هذا البديل وعر ضهم لهذه المضاعفات.

(٢) إن الممارسة الأحدث فى مهنة الطب قد باعدت بين الطبيب إنسانا والمريض إنسانا، لتحل محل ذلك التحاليل والآلات، وحتى الطب النفسى الذى كان المفروض أن يقوم بسد هذه الفجوة هو يتراجع الآن تحت زعم ما يسمى "النموذج الطبي"، وهو ليس كذلك، لأنه ليس إلا "النموذج الكيميائى المختزل" المغترب.

(٣) إن الممارسة الإكلينيكية ليست علما خالصا، لكنها فن يستعمل معطيات العلم، وحين فقدت، هذه الممارسة جانبها الفنى، لتكتفى بتصوراتها العلمية، تزايد لجوء الناس إلى فن التداوى العشوائي.

(٤) إن الفجوة بين نتائج الأبحاث العلمية وبين طبيعة الممارسة الإكلينيكية تتسع باستمرار كلما أصبحت الممارسة الأكلينيكية آلية ونمطية، يحكمها القانون المكتوب، والأرقام الجافة، أكثر مما تحكمها العلاقة الانسانية والنتائج العملية.

(٥) إن شركات الدواء، وشركات الأجهزة، بالغت فى الاندماج و الإثراء على حساب المرضى، والعلم، وقدرات الناس على التداوى، حتى راح الناس يبحثون بمعرفتهم عن بديل أرخص سواء كان ذلك البديل من الأعشاب، أو من قطرات فارماكوبيا "المعالجة المثلية" Homeopathy أم من تلاوة الرقى، وتحريك البندول (مع العلم بأن تكلفة بعض ممارسات الطب البديل قد تبلغ أحيانا أضعاف تكلفة الطب الرسمى).

وعلى ذلك:

أولا: إنه لابد أن تتخذ الدولة والنقابة موقفا حاسما ومطلقا من هذه الممارسات البديلة، علما بأن كثيرا من التجاوزات فى تطبيق القانون هى نتيجة لاقتناع المنفذين بجدوى وفاعلية هذا الطب العشوائى البديل رغم أنف نصوص القانون.

ثانيا: إنه لابد أن يعمل الطب الرسمى على الوفاء بحاجة الناس، وأن يبحث فى نقائصه، وأن يستكملها، حتى تعود الممارسة الإكلينيكية عملا فنيا إنسانيا راقيا، ليكون الطب مداواة ومواساة، لا مجرد كيمياء مختزلة، أو معمل منضبط، مما يفتح الباب لألعاب الحواة.

ثالثا: لابد أن يعاد النظر فى محاولات وصاية ما يسمى المنهج العلمى التجريبى على وعى الناس، وممارسة الطب، ذلك أن المنهج العلمى الأشمل فى تطور مستمر، وهو قد تجاوز التجريب دون إهماله، وبالتالى تجاوز المقارنة المحدودة، وخاصة فى مجالات فحص الممارسة الإنسانية، وأصبح من المسلم به أنه يكاد يستحيل عمل مايسمى التجارب المعماه، ناهيك عن التجارب المزدوجة التعمية أو القابلة للاستعادة بالمعنى المقارن الصحيح، وذلك نتيجة لعمق الاختلاقات، الفردية، والجماعية، والثقافية، وتداخل المتغيرات غير المحدود.

وقد أعلت من قيمة هذا المنهج التجريبى المعملى دون غيره شركات التأمين، وشركات الدواء ومنظمات الرقابة، على حساب فن وحكمة التداوى، وعلى حساب وصف الحالة، والمنهج الوقائى، والتقيم الكلى النوعى.

ونختتم اجتهادنا بالتنبيه على ضرورة استمرار الحوار بين الواقع والمنهج، بين المعلومات والوعى المتلقى، بين ما نتصوره الأنفع وما نراه الأكثر شيوعا، بين جهلنا الرائع المثير للمراجعة والاستزادة من العلم، وبين أخطاء العشوائية المثيرة للتحدى.

فن عولمة

ناقص

جوائز وجوائز!![9]

بمناسبة نيل د. أحمد زويل لجائزة نوبل، من حق أى مصرى أن يفرح، ومن حقه أن يأمل، ومن واجبه أن يعمل أكثر، ويتقن أكثر، ويستمر، ولكن ماذا لو أن د. زويل أو نجيب محفوظ لم ينالا جائزة نوبل ؟ هل كان هذا سيقلل من شأن أى منهما، هل كنا سنحرم الحق من أن نفرح؟ أو الدافع أن نعمل ونأمل؟

---

9 - مجلة سطور ٣٠ / ٦ / ١٩٩٩

بداية، لابد من الاعتراف بأن جوائز الدولة، وجوائز الدنيا هى من أهم مقدسات العصر، وهى تستأهل ذلك، وكانت طول عمرها كذلك، ولنترك جائزة نوبل جانبا فهى أ:كبر وأهم وأخطر من أن نقترب منها حتى ونحن نأخذ كل الحذر فى تقديم احترمها و تقدرينا لها، ولنبدأ بالنظر فى جوائز الدولة، كنموذة أصغر لما نود أن نقدمه من رأى، والكلام الآن عن جوائز الدولة يمكن أن يكون أكثر موضوعية بعد أن بعدت المسافة بيننا وبين إعلانها على مختلف المستويات.

فنقول:

إن من أوجب واجبات الدولة أن تشجع الواعدين وهذا ما تعنيه الجائزة التشجيعية (وخاصة بعد خفض السن)، ومن أنبل مظاهر يقظة الدولة أن تحترم المتفرقين (جائزة الدولة) ومن أهم مهمات الدولة أن تقدر الانتاج الفكرى الأعلى ومن أميز الأمور دلالة خاصة أن يزال شرف حمل رمز الدولة وتاريخا أو حالا جائزة فيصل ــ مبارك من يقف على قمة هرم كل هذا.

ومن قديم، ومنح الأمراء والخلفاء للشعراء والمبدعين أحيانا الفقهاء كانت دافعا لاستمرار إبداعهم وإرساء ملكهم فى نفس الوقت، وحين ناقشت يوما شيخنا نجيب محفوظ حول تحفظى على مديح المتنبى لسيف الدولة لدرجة تصورت أنها تصل أحيانا إلى التدنى رد على ــ دون حرفية ــ بأن هؤلاء الشعراء كانوا بمثابة وزارة الاعلام حاليا، فماذا تنتظر من وزارة الإعلام أن تقوله فى رأس الدولة؟

وفهمت الدور ــ الإيجابى فى الأغلب ــ المشترك بين الإبداع والمنظمة الحاكمة.

وقد نال كل ما يستأهله ــ فى الأغلب ــ بعضهم بعد أن كان القطار يفوته، والبعض بعد أن ستغنى والبعض فى الوقت المناسب أو قل الوقت المناسب، والبعض ليس كذلك، وهذا كله وارد، لكن تبقى الأيجابيات هى الأرجح.

وحديث هذا المقال عن الذى لم ينل الجائزة، بل هو عن الذى لن ينالها أصلا، ولا أجد حرجا فى الاعتراف من أننى أتصور ما وراء ذلك من أسباب شخصية، تبدأ من السمات الخاصة، وتمر على البصيرة بتواضع الإسهام وتشتته لتعدده، ولا تستبعد درجة من الغيرة بل والحقد، ولم لا؟ فالبشر بشر له حق أن يكون كذلك، وعلى الرغم من هذا الجانب الشخصى الذى كاد يحوى دون ظهور هذا المقال، فقد رجحت فائدته عن غير ذلك.

يستحيل أن يعيش الانسان دون تقدير:

بل إن الطفل يتكون من تقدير أمه له أنه "ولير" أنه موجود منفصلا عنها ككيان مستقل يستحق الاعتبار.

بل إن المدارس الانسانية فى العلوم النفسية تصنع مسألة التقدير هذه على قمة حاجات الإنسان الأساسية وتتحدث حاجة الإنسان أن خير حيث هو " أن يرى"، أن يترف به من " آخر".

وكلما كان هذا الآخر معبرا هو، ومحددا، وظاهرا، كن الاعتراف والا معنيا ومغذيا.

وقد فضلت أن اسمى هذا الخاص باسم الحاجة إلى آلشوفان (بدلا من الجوع إلى الأعتراف recognition hunger)

والشوفان كلمة عربية صحيحة، واستعمالاتها العامية جميلة ودالة فى نفس الوقت

ففى العربية يقول الشاعر

إن الكريم إذا يشاق رأيتك مبرنشقا وإذا بها ذا........،

وفى العامية " يا عم شفنا، يا عم عبرنا، أعطاها من وهذه الجوائز جميعا تغذى هذه الحاجة أساسا، لكنها ذات فوائد ووظائف آخرى لمن نالها ومن لم ينلها فى آن)

ــ فهى تعلن تقدير الدولة ــ وخاصة حين تمثل الناس ــ لهذا الجهد الاخص.

ــ وهى تعلن يقظة الدولة فى تتبع جهد المجتهدين.

ــ وهى تعلن حق نائلها أن يحصل على " شهادة رسمية" أنه " الله نور!! (الله ينور عليك).

ــ وهى تحمل نوعا من الشكر أيضا ــ خبيا إلى جنب مع التقدير.

أما بالنسبة لمن لم ينلها أو لمن لن ينالها فلها وظائف ايجابيه أيضا:

(١) فهى حافز له أن يسعى إليها فيضاعف من.

(٢) وهى وعد خفى فثمة "شعب سوف يري".

(٣) وهى دعوة له أن يغطى بعض قصوره (العلاقاتين والابداعية) التى حانت دون أن ينالها ولد كان منصور أنه يستحقها)

الرسمية

والجوائز/ مثل الشهادات الرسمية من أول شهادة ساقط الإبتدائية التى كانت مؤهلا للتعيين فى بعض الوظائف البسيطة مثل وكيل البوسطة وناظر محطة الدلتا (فى الثلاثينات) حتى شهادة الدكتوراه حاليا، فلا غنى عن هذه الشهادات لتحديد مستوى الجهد (والعلم) الذى حصل، وفى نفس الوقت لا هي، ولا الجوائز كل شيء أو لا ينبغى أن تكون كل شيء.

وما يلى من إتصال ليس شهونيا لا بالشهادات ولا بالجوائز بعد كل هذه المقدمة الحذرة، بل هو إضافة لها وتبرير تلك يكمن فيما يلي:

أولا: إن عدد من لا يحصلوا على الجوائز أصناف أصناف من لم يحصلوا عليها (طبعا وبديهيا وإلا ما كانت جوائز).

ثانيا: إنها ليست الوسيلة الوحيدة للتقدير.

ثالثا: إن الوعى نعيبتها الرائعة والتى لا جدال فيها لا ينبغى أن يطفيء (أو يخفى) الوعى بقيمة غيرها من جوائز.

رابعا: إن جوائز أخرى موجودة، وهامة وحقيقية، وعميقة وذات دلالة لا ينبغى ألا تغيب عن وعى عامة الناس من جهة، ولا عن المبدعين والمفكرين والعلماء من جهة أخري.

وثمة بعد أن إضافيان مستحقان النظر من نفس المنطلق وإن كنت سأؤجل الحديث عنهما إلى حديث لاحق إذا لزم الأمر.

١ــ النشر العلمى فى مجلات رجعية ومعترف بها.

٢ــ النشر عام فى دار نشر محترمة.

٣ــ الترجمة إلى لغات آخري.

(٤ الشهادات).

أما الجوائز الأخرى فهى:

(١) جائزة التاريخ.

(٢) جائزة الناس (عن الدفن)

(٣) جائزة النقد (..........).

(٤) جائزة الانتشار (إدوار الخراط ــ كم شعر الحداثة ٩ / ٧ / ١٩٩٩)

(٥) جائزة الله (إعمل الطيب وأرميه فى البحر)

(٦) جائزة التقمس (لو وزعوا الأرزاق ما رضى أحد يرزقه، ولو وزعوا العقول مارضى أحد إلا بعقله).

وأخشى ما أخشاه هو أن يعود فتح هذه الآفاق أمام الجوائز غير الرسمية،، التى فيها قدر فائق من الأمال، ومن الأحلام، ومن غيوب المغالاة فى الترجمة

وتقدير الذات، أن يكون فى ذلك اسهاما فى التقليل من قيمة وضرورة هذه الجوائز الرسمية، فلا نعدم أن واحدا يرى فى نفسه أنه أحق من فلان الذى أخذ الجائزة فيغالى فى أنه لا يحتاج لمثل هذه الجائزة أو أنه لديه ما هو أحسن منها وهى تقديره لنفسه أو تقدير الناس له، ولا مانع من أن يتمادى فيتصور ويصور بحق أو بغير ذلك ــ تقدير الله له.

ومع هذا التحفظ، فإنى أرى أن إيجابيات ذو قبح هذا الأمر تغلب سلبياته بشكل أو بآخر.

ثم نأتى إلى مسألة رفض الجائزة، وأشهر من رفضها يرنا رد شعر وسارتر، وأنا لا أتصور أن فى هذا "فضل خاص"، فقد يكون معناه إيجابيا، إذ يحذر مثل هذا الشخص من أن يكون هذا التقديرى سباب

عثر ما يرجو هو شخصيا أن تكون محل تقدرير مثل هذه الهيئات وقد يكون سلبيا بمعنى المبالغة فى الغرور والتعالى.

ثم تأتى هيراركية الجوائز

فلا أفى أن من نال الجائزة الأعلى يمكن أن يستغنى (يعتذر ألا يرفض) الجائزة الأقل، عليهم إلا أن كان لكل جائزه دلالتها الخاصة ونوعيتها المتميزة.

أما عن الجوائز الخاصة التى تمنح من

(أ) ثرى محب المعرفة والابداع

(ب) أو شخص يريد لاسمه أن يستمر، وفى كل خير.

أما عن الأولى، فيتوقف الأمر على الهيئة التى تختار المحكمين وتجدد اختيارهم وأيضا على الشريط.

وأما عن الثانية فيتوقذ فلا مانع شريطة أن تكون الشروط أيضا واضحة والمحكمين أمناء.

الجزء الثالث

مُداخلات تفصيلية

الملاحق

١- خطاب إلى مقرر (والزملاء فى) لجنة الثقافة العلمية بعيد بدايتها

٢ - الإسلام: قدسية أم سكلرية (موجز مقتطف من يوميات "الأهالى" لما جاء بالمقال بالإنجليزية)

3- **Islam:** Secular or Sacred

عن السببية والفلسفة والعلم [١]

خطاب باكر إلى مقرر لجنة الثقافة العلمية

أ. د. ميلاد حنا

وإلى الزملاء فى اللجنة

القاهرة فى: ١٣ / ١١ / ١٩٩٣

السيد الأستاذ الدكتور: ميلاد حنا

لجنة الثقافة العلمية. المجلس الأعلى للثقافة

بعد التحية والسلام.

وصلتنى الدعوة لاجتماع اليوم، وأشكركم على دقة رصدكم، ورصانة إيجازكم أنتم والسكرتارية.

وقد لمحت ما جاء على لسانى فى الاجتماع الأول من أن " ما يشغلنى هو كلمة العلم ونحن فى عام ١٩٩٣ (إلى أن قلت) فهل المنهج السائد فى الأربعينات هو ما يقاس به العلم فى السنوات الحالية...إلخ)

وقد لاحظت أننى أثناء الاجتماع لم أستطع أن أوضح نفسى حتى رد أ.د. سمير حنا بما معناه أننا هنا لا نناقش فلسفة كذا أو كيت.

ولما قرأت ما اقتطف عنى فى محضر الجلسة عذرته وأحسست أن على واجب الإيضاح له ولكافة الزملاء.

ولما كنت حريصا على وقت اللجنة، فقد فضلت أن يكون الإيضاح مكتوبا لسائر الزملاء.

1- (مقتطف من مقال كتبته عن " السببية فى الطب النفسى") - مجلة الإنسان والتطور - عدد أكتوبر ١٩٩٣)

أولا: تعبير الثقافة العلمية تعبير غامض على حتى الآن

ثانيا: الفلسفة ليست هى النقاش فى المسائل النظرية التى يمكن الاستغناء عنها لكنها عمق كل المعارف، وبالتالى هى الأقرب لما يسمى الثقافة العلمية إن صح التكامل بين ما هو ثقافة وما هو علم

ثالثا: امتهنت كلمة علم واختزلت حتى أصبحت مرادفة للمعلومات مرة، وللتجريب مرة وللإحصاء مرة، وكل هذه أخطاء شائعة نربأ بلجنتنا أن تقع فيها،

وبما أن لجنتنا الموقرة هى لجنة ثقافية (ثقافة علمية!!)فأرى لزاما علينا أن نكون حريصين على دقة استعمال لفظ العلم.

رابعا: إن وظيفة هذه اللجنة فى تصورى هى الحرص على الإسهام فى تنمية نوع ناضج من التفكير، وموقف متحرك من الوجود، يسمى أحيانا موضوعيا (ليس ضد ذاتيا) ويسمى أحيانا علميا (بالمعنى الشامل للمعرفة المبدعة)،وهذا وذاك يحتاج تحديد موقف مبدئى حتى لا يتكرر النشاط وتتداخل الاختصاصات بين المؤسسات واللجان المختلفة.

خامسا: بالتالى ليس من مهمة هذه اللجنة –على حد فهمي–إضافة علم أو جمع معلومة، وإنما تعميق منهج، وتوجيه موقف حياة ووجود

وبـــــعـــــد

فقد اقتطفت بعض ما سبق أن تناولته كأمثلة للنقلة التى نعيشها ونحن نقترب من سنة ٢٠٠٠، ورغم أنها قد تبدو لبعض زملائى وأساتذتى بداهات مكررة، إلا أننى تصورت أنها تذكرة لى حتى لا أعيد نفسي.

ولكم وللزملاء كل احترامى:

يحيى الرخاوى

****

ثم ألحقت بالخطاب هذه المقتطفات:

... (إشارة إلى) بعض معالم اللغة الجديدة فيما يتعلق بالتفكير العلمى والمنهج على الوجه التالي:

١– لم يعد الصراع هو منبع التوتر،... ومن ثم لم يعد البحث عن تخفيف التوتر هو الهدف الأهم (فى الحياة العادية والمرض على حد سواء، وهذا مخالف لما أكده فرويد وبعض نظريات الغرائز)

وإنما حل محل ذلك فهم للإنسان باعتباره مجرى متصل ومتغير ومتجدد ودوري: للطاقة ومتغيرات أخرى (أنظر بعد)

٢–لم يعد الاستقرار الحيوى homeostasis، والتوازن عامة هو غاية المراد من تكامل وتفاعل وتقابل القوى الذى يحقق الصحة والدافعية.

وإنما صارت الحركية والنمو الإبداعى والتفرع الخلاق هى الصفات الأساسية للحيوية الطبيعية والتوازن المفتوح.

٣- لم يعد الفهم الدينامى لنسبية القوى المؤثرة (الفهم الدينامي) هو المفسر الأول لمسار وغاية الوجود

وإنما أصبح الوجود هو المنظومة المفتوحة ذات السيل المتدفق القادر على تخليق منظومات وكيانات جديدة.

كذلك أصبح ما يسمى "الجاذبات العشوائية"هى القادرة على تخليق التفرع الإبداعى، وهى أساس الإسهام فى تكوين المنظومات الفيزيقية والطفرة البيولوجية والإبداع النفسي.

٤- لم تعد الطاقة والمعلومات هى جماع وحصيلة فى مخزن مقسم إلى أدوار وطبقات تتبادل وتتفاعل.

وإنما أصبح كل شيء فى حالة حركة أمامية دائمة الفعلنة والتكوين المتغير والمتجدد.

٥- لم تعد الطاقة تفهم باعتبارها مخزونا كميا غريزيا يثور بقدر عدم إشباعه ويهمد بقدر إشباعه

وإنما صار سريان الطاقة وفيضانها هو العملية المستمرة التى تسمح بنتائج تطورية خلاقة من خلال التزاوج الكونى للأضداد:

وهذا التزاوج الكونى للأضداد: يستبعد ويتجاوز

(ا) أن يكون التغير عملية انفرادية.

(ب) أن يدورالتذبذب لتحقيق التوازن لا أكثر.

(جـ) أن يكون الاستقرار الحيوى مطلوبا دائما لذاته.

(ء) أن تكون الدورية دورية مكررة، وبالتالى مغلقة.

٦- لم تعد المعلومات هى ما يدخل مرموزا أو مفعلنا فى مخزن للذاكرة منفصلا عن الطاقة والمادة الحية

وإنما أصبحت المعلومات والمادة والطاقة تيارات فى نهر واحد يستحيل فصلها عن بعضها البعض وإن ترتبت وتأثرت بحسب نوع وموقف الوجود، وبحسب ترجيح لغة التعامل مع أى منها

وهذا المفهوم الجديد هو القادر على أن يربط بين عوامل العلية للأمراض النفسية بعضها ببعض، أى أنه هو الذى يمكن أن يربط الوراثة بالتعليم بالأمراض العابرة بالأمراض المزمنة إلى غير ذلك بطريقة تنفى تماما مسألة جمع هذه الأسباب بجوار بعضها أوفهمها منفصلة أو متنافسة.

٧- لم يعد الاستقطاب واردا بين:، العدوانية (الموت) والتخلق (الحياة)، بين اللاشعور والشعور، بين الذات والغرائز، بين الظاهر والباطن.، بين الحياة والموت.

وإنما يحكم مسيرة الوجود ثالوث:

(١) الواحدية

(ب) التضاد الخلاق

(جـ) توحد فيضان الطاقة.

٨- لم تعد علاقة الأضداد هى علاقة الصراع أو الديالكتيك فحسب،

وإنما تعددت إلى أنواع تعدد مفهوم علاقة الأضداد:

(أ) **التضاد بالإنكار** (الماحى: أحادى الاتجاه): وهو الذى يلغى المتغير المضاد بحذفه إنكارا أو إزاحة فيكون الحذف هنا هو ضد الوجود مثلما يحدث فى الكبت، وإلى درجة أكبر فى المحو.

(ب) التضاد بالشد (فالتوتر): وهو التضاد الذى يتنازع الطاقة لتحقيق العكس الميكانيكى عادة، وهو المرادف للصراع، وهوالذى ينتهى بالإنهاك والتحايل بالحيل النفسية (الميكانزمات)المختلفة، لتحويل التضاد إلى معادلات دينامية أخف وأخفي

(جـ) **التضاد الـُمواجـهى**: وهو التضاد الذى يمثل تصادما متحديا بين مستويات الوجود (القوي/المادة/ المعلومات) وهو الذى يستعمل كل الوسائل ليس للحصول على هدف مضاد، وإنما للتفوق على الخصم الضد، ويحل هذا التضاد مؤقتا بنفس ميكانزمات المحو وغيرها، لكنه لا ينجح تماما ويبقى التصادم جذريا بما يؤدى إلى شلل الحركة الأمامية واستنفاد الطاقة بشكل أو بآخر.

(ء) **التضاد التسوياتى:** وهو النوع الذى يخلق حلاّ وسطا يبدو وكأنه يرضى الأطراف المتعارضة، وهو يرضيها فعلا ولكن على حساب فيضان الحركة الأمامي، والتفرع الخلاق. وهذا الحل الوسط (التسوية= الحلوسط) هو الذى ينتج عنه حالة من التوازن، والقوة الظاهرة ولكن على حساب التغير والعشوائية البناءة.

(هـ) **التضاد الخلاق:** وهو التضاد المبدع السامح بدورية مفتوحة قادرة على تحمل ذبذبة جسيمة، تهدد بعشوائية خطرة، ولكن هذه الذبذبة المخاطرة والعشوائية الجسيمة هما اللتان تسمحان بتخليق منظومات جديدة تتجاوزكل التسويات المعروفة، بل وتتجاوز التكامل الولافى الديالكتيكى الشائع

وهذا النوع هو أبعد الأنواع عن التناول، وهو يكاد يكون ضد كل المعروف مما يمكن وصفه أو تحديده بالألفاظ أو الشرح أو التشبيه، وهو يبلغ من عمق حيويته أن لفظ التضاد من حيث المبدأ لا يكاد يناسبه أصلا، كما أن أى لفظ آخر لا يستطيع أن يتضمنه حالا.

الإسلام قدسية أم سكلرية ٢[2]

(مقتطف مترجم إشارة إلى المقال اللاحق بالإنجليزية)

الثلاثاء ٢٣ / ١ / ١٩٩٦ الرابع من رمضان

كانت الأهرام ويكلى قد طلبت منى كلمة عن رأيى فى مسألة العلمانية والإسلام، ولم أدر لماذا طلبت منى أنا شخصيا الإدلاء برأى فى هذه المسألة، وتهربت بما استطعت، ولم يفلح الهرب، فاستخرت الله ورحت أكتب بالإنجليزية ما تيسر، ولكى أكتب بالإنجليزية لابد أن أرجع إلى أصل الكلمة التى أعلم أنها ترجمت إلى العربية أسوأ ترجمة، ترجمة أضرت بكل من العلم والدين معا، وقلت أتعرف على الكلمة من ضدها، فبضدها تتميز الأشياء ووجدت أن ضدها هو "المقدس" **(secular = not sacred)**، **والتقديس هنا ليس بمعنى التنزيه والتأليه، وإنما بمعنى الثبات وعدم المساس والتسكين (الاستاتيكية)**، وبما أن الدين الإسلامى (كما أعرفه) هو الدين الذى يدعو إلى الحركة والتغيير إلى ما هو خير الناس دائما أبدا، وإلى المباشرة الحسية، وإلى تأكيد العلاقة بالطبيعة (أنظر اليومية الأولى)، فلابد أنه دين "واقعى مرن"، أى أنه حركى دينامى، يا خبر!! كل هذا حتى أترجم كلمة واحدة، (ماذا لوعربتها إلى "سكلرية" بدلا من هذه الترجمة المضلله: علمانية – سكلريه مشتقة من الفعل: سكلر يسكلر: **أى حركه بعيدا عن الجمود فى اتجاه الواقع الحالى!!**

نعم الإسلام ليس دينا ساكنا، ولكن المتأمل فيما يجرى الآن سوف يروع حين يجد أنه أصبح دينا موصى عليه، محاطا بسياج من لغة ساكنة ووعى جامد.

وإذا بى أقرأ فى الموسوعة البريطانية أنه قد نشأ مؤخرا ما يسمى بالمسيحية السكلرية، يعنى الآية انقلبت: الإسلام أصبح يرزح تحت كهنوت كنيسة القرون الوسط، والكنيسة تحررت لتصبح أقرب إلى الإسلام الحقيقى، هل يمكن أن يوجد ما يسمى الإسلام السكلرى، أى المرن المتفتح المواكب للطبيعة المؤكد للمباشرة وخير الناس؟

يا ربنا المعز المذل: ألسنا أولى بإسلامنا والعالم أحوج ما يكون إلينا به كما أنزلته، وليس بما آل إليه؟ يا ربنا يا أكرم الأكرمين أنر قلوبنا بما أنزلت، وأهد خطانا بما أردت، ولا تشل حركتنا بما يؤولون.

---

2 - مقتطف من يوميات نشرت فى الأهالى: ٧ / ٢/ ١٩٩٦

Islam: Secular or Sacred[3]

The opposite of secular is sacred and not religious. The Arabic translation of the term secular is responsible for both the ambiguity and the misinterpretation of such illusive dichotomy. The word secular is translated to the Arabic word "almani" whose pronunciation is quite near to the word "science" in Arabic. Moreover sacred societies in principle did not. or should not. exist in the profound essence of Islamic religion. Contrary to what is prevailing nowadays in most Islamic societies, any thing that is sacred in the mediaeval sense of Christianity is not only non-Islamic but also anti-Islamic

A Moslem, to my mind, could be any one who lives directly relating to nature (through normal senses and holistic contact)., essentially pulsating (through rituals and otherwise) living the levels of consciousness in expanding alternations, believing in the beyond (not surrendering to the unknown) and creating one's self and the world all through his life. This is mainly stemming from emphasis on the concept that Islam is the religion of fitra (the un-mutilated human nature) and personal freedom arising from real absolute monotheism... It is also related to the concept saying that the believe in God should be complemented by the believe in the beyond (which is my own translation of the Arabic word "alghayb" instead of the unknown), Such basic concept1 refers to both creation and open ended chances for unlimited cognition. The real dynamic meaning and goal of secularism is not very far from this attitude. Secular means "not bound by monastic vows or rules". In Islam there is no monastery. As a matter of fact it is prohibited. "No monkery in Islam" is the proper saying.

Secular society is said to be "a type of societies that elicit from (heir members the willingness and the ability

to change". This is exactly the basic assumption on which Islam is based. Any static concept hindering the unlimited ability to change is not natural (not i.e. not Islamic in the proper sense. In other words. Islam is not, or should not be sacred in a static sense.

Where, then, is the problem?

Before answering this question let us have a look on those who are categorized as secular, for instance, in Egypt. Most of them are either belonging to the movement of illumination which predominantly imitates rather than creates solutions for current problems or they belong to a group of actual or ex-lefties. A third sector is trapped in the mistranslation of the

---

3- أوردت هذا المقال بالأصل الذى كتب بالانجليزية للأهرام ويكلى، وهو مقال متعلق بموضوع الكتاب الأصلى، وقد تعمدت ألا أترجمه (اللهم إلا المقتطف الموجز الذى نشر فعلا فى صحيفة الأهالى)، ذلك لأن أغلب ما جاء فيه وراد فى كثير من المقالات الأخرى بالعربية.
وقد نشر موجزه فى Al -Ahram Weekly بتاريخ ٨ -١٤ فبراير ١٩٩٦ بعنوان False Opposites.

word secular and belong to some limited methodology mainly related to logical positivism. To this group this exclusive method (logical positivism) is so idealized to a degree that seems to make science a limited or static mode of getting to know the self or the world. As such, at least this latter group constitute a sacred rather than a secular group.

One can conclude that sacred is the static imprisonment in fixed ideology while, secular is related to the objective evaluation and re-evaluation of the current issues of life in the here and now. Nazi Germany and Geneva theocracy are considered sacred societies. Howard Becker, an American sociologist reminds us that "secular" is not synonymous with profane or irreligious. In the 20th. century a number of Christian theologians began advocating secular Christianity. "..man should find in the secular world the opportunity to promote Christian values. These theologians maintain that the real meaning of the message of Jesus can be discovered and fulfilled in the every day affairs of secular urban living.

It is high time to ask: how comes that secular Christianity is turning to be Islamic while Islamic religion is turning to he more related to mediaeval Christianity ?

I am not sure to what extent my point of view fits classic Islamic religious authorities. What Islam could mean to the simple logic of a naive Moslem is emphasized in its basic assumptions. Our prophet prayed God to give him just the faith of old people (not of clergymen or specialized interpreters).

To show what actually characterizes Islam from this naive point of view vis-a-vis the prevailing Western/Northern point of view needs a sepatate paper.

It is extremely difficult to try to show real differences between the Islamic point of view and what is cold the Western (northern) materialistic one. Generalization is both fallacious and dangerous. The following is just a point of view of a Moslem who believes that Islam is a life, a way of cognition, an existential awareness and a crescendo creative integration.

Islam should be approached as a potentiality to all human beings and the specific belief depend on the historical and environmental chances. If this is true Islam as a religion (provided that it is not mutilated) is the given example of such mode of existence called secular.

On the other hand western (northern) life does not go in one direction along a single discipline. I refer here only to the sector of Western / Northen (W/N) people who lead the quantitative materialistic rather industrial (and now informational) model of life.

To start with a basic concept should he clarified. Islam as a religion is not a recreational or an exclusively spiritual practice. It is not a week-end activity or a relaxing meditation procedure. A Moslem is but a Moslem all day and night including every hit of activity. This is

misinterpreted and abused by the political Moslem radicalists to rationalize establishing theocracy. The saying that Islam is a daily doctrine only emphasizes that it is a holistic mode of relating to life including man and God in every detail. This does not the least mean that it monopolizes shaping the laws or limits creative innovation for the welfare of human beings at large. The following are breadlines of basic assumption that could characterize Islam as I know and believe in.

First: The multi-level mode of existence which could correspond to the hierarchical organization of the cosmos. Man represents a micro cosmos and the ultimate goal of faith in Islam is to achieve an active harmony through continuous creating one's extending life up to the state of extreme creativity: like man like God. This multi -levels approach to Islam include: the behavioural level (e.g. rituals, interpersonal relating and social adaptation), the biorhythmic level (direct relation to the rhythmic nature and connecting almost all rituals to this biorhythm), the transpersonal level (the expanded channels of cognition not exclusively intellectual) and the creative level assimilating dichotomies towards Integration. Such hierarchy is partly expressed through the graded interpretation of the Holy Koran as well as in many mystic doctrine where there are: the behavioural level (including rituals = Al Sharia), the method (including meditation =methodology) and the cognitive creative level (the truth = Al-Tarika).

The W/N (Western/northern1) mode of life put more (and sometimes exclusive) emphasis on behavioural and artistic production level

Second: Islam emphasizes some sort of open ended mode of existence. The believe in the "beyond" (= Al- Ghayb) is not passive surrender to the myth but is an invitation for some open ended mode of creative existence

The W/N trend, before the latest revolution in methodology, was putting more (or exclusive) emphasis on the available reproducible solid information.

Third: Islam tries to overcome the dichotomy between the soul and flesh (body) and the main holistic existence is represented in the overall human nature called al-fitra.

Fourth: In Islam the relation with God is a direct one. In essence there is no clergymen or specialized diviners. The bare earth is the real mosque at large. This is in contrast to what prevails in the W/N societies where there is extreme polarization from frank atheism to sacred religious authorities.

Fifth: Islam emphasizes the direct relation with bare nature and almost all Islamic, rituals are ordered by this direct relation not relying on recent "scientific or technological devices.

Six: the basic central-goal idea in Islam is monotheism. This is a practical means for cultivating profound genuine personal freedom.

Seventh: the means to know the self and the world utilizes more than one channel and method. The intellectual tool and experimental method, as examples, do not monopolize the source of valid realistic cognitive possibilities.

Annefary, as a conclusion, reads "Science which is opposite to ignorance, is the reduclionistic science (science of the letter).

Ignorance which is the opposite of science is, as well reductionistic, (the ignorance of the letter).

Break through the. letter and you will get the science which has no opposite. This is the cognitive logo-science. And break through the letter of ignorance then you will achieve the ignorance which has no opposite. That is the real certitude.

فى الثقافة العلمية: من أين نبدأ

من الناس إلى العلم أو من المعلومات إلى الناس

أسئلة:

هل نقيس الناس بالمعلومات أو نقيس المعلومات بفائدة الناس

وكيف نقيس فائدة الناس ؟

وماذا عن: "نوعية الحياة ؟" (وشركات الدواء)!!

أين يقع الدين من الثقافة العلمية

الدين: ليس دافعا إلى العلم، ولا مدافعا عن العقل

الدين: هو طريقة حياة

الدين: هو نوعية وجود

الدين: هو معرفة أخرى

الدين: هو كشف وامتداد

خدعة المستقبليات

مهرب الحاضر

الثقافة العلمية وعلم المستقبليات

الثقافة العلمية والتدين

مقتطفات دال: (أحمد شوقى: وحتى لا يساء فهمى، أود أن أوضح الفرق بين ما يسمى الثقافة العلمية، وبين العلم كثقافة، فالثقافة العلمية مفهوم كم، تعنى وجود جهود لتقديم جرعات من المعارف العلمية الأساسى والحديثة للراغبين فى الإلمام بها،